13 me Année No. 612

Lundi - 26 - 3 - 1945

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٨٠ فى مصر والسودان

١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى

ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين

رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٦١٢ « القاهرة فى يوم الإثنين ١١ ربيع الآخر سنة ١٣٦٤ — ٢٦ مارس سنة ١٩٤٥ » السنة الثالثة عشر

معروف الرصـــــافى

١٨٧٥ — ١٩٤٥



(الرصافي وهو فى الخمسين من عمره)

نعى العراق أول هذا الأسبوع شاعره الباقى ، فوجمت لمنعاه ألسن ، وجزعت لفقده نفوس ! ثم قرأنا أن بغداد قد غسلت شاعرها الراحل بالدموع وشيعته بالحسرات ، وكنا قرأنا من قبل أن الرصافى فى أعقاب عمره كان يطلب الغذاء الكفى فلا يجده ، ويلتمس الدواء الضرورى فلا يناله !

لفظ معروف الرصافى أنفاسه الأخيرة فى حجرة مظلمة مقرورة لا يلطف جهومتها نور ولا نار ، ولا يخفف وحشتها خليط ولا جار ؛ ولم تقع عينه الشاخصة وهو فى نزاع الروح إلا على ورقة هنا وكتاب هناك ، أو على خادمه الأمين يتماسك لحظة ويتبالك أخرى ، والدنيا التى صحبها الشاعر سبعين عاماً يدل على جمالها العيون ، ويغرى بمتاعها الأفئدة ، لم تجُد عليه ساعة الوداع بيد رفيقة تغمض عينيه ، ولا بعين حبيبة تذرف دمعة عليه !

كان الرصافى — أحسن الله إليه — لسان العراق الصادق ، ينقل عن شعوره ، ويترجم عن أمانيه ، ويحدو لركبه المجاهد فى سبيل استقلاله وعزته بالحداء الحماسى المطرب ، ويصور خلجات نفسه ووساوس أحلامه بالشعر الصريح المعجب ؛ وظل هو والزهاوى وشوقى وحافظ ومطران حقبة من الدهر يؤلفون الأوتار الخمسة لقيثارة الشعر العربى الخالص . ولكل وتر درجته فى الرنين والجهارة والأثر .

والرصافى أشبه بحافظ من الزهاوى بشوقى . وإن شئت فقل كانا الوترين الرابع والخامس فى القيثارة : صوت عريض ضخم ، وذبذبة ضيقة محدودة .

كان هذان الشاعران يتشابهان فى أسلوب العيش وأسلوب الفكر . كانا صدًى لهتاف الجمهور فى السياسة والاجتماع ، ورجْعاً لأنين المساكين فى الألم والشكوى . وكانا يتقاربان فى جوانب من ضيق الثقافة وقلة الاطلاع وبوهيمية الحياة . ولكن الرصافى كان متميزاً على نظرائه جميعاً بالصراحة الجريئة والاستهتار البالغ . كان يعيش ليومه وينطلق على هواه ويستجيب لغريزته ، فيفعل

ما يشاء ، ويقول ما يعتقد ، ويطلب ما يشتهى ، ثم لا يبالى أين يقع ذلك كله من رأى غيره . ولا مراء فى أن لهذه الحرية المطلقة أصلاً فى مولده ونشأته . كان أبوه من بدو الكرد وأمه من بدو العرب . وكانا فقيرين فولداه ببغداد فى مهد بدوى خشن . ثم نشّآه على أخلاق البادية الأصيلة . ثم أرخيا له الحبل وتركاه يغدو ويروح على مقتضى فطرته . ثم تبناه بالروح عالم العراق الأستاذ محمود شكرى الألوسى فلقنه فى اثنى عشر عاماً أصول المعقول والمنقول من علوم الدين واللغة والأدب . ثم حاول أن يقبسه أشعة من نور سلفيته وتقواه ؛ ولقبه بالرصافى رجاة أن يخلف معروفا الكرخى فى صوفيته وزهده . ولكن غرائز معروف كانت أقوى ، ومطامحه كانت أبعد ، فخرج من هذه الرياضة الطويلة مسلم اللسان جاهل القلب .

ووجد الرصافى العراق على فترة من الشعراء ينتظر أبا نواسه المبعوث ، فصدح على ضفاف الرافدين صدحاته المعروفة فأصغت إليه الأسماع واهتزت له القلوب . ورأى الناس فى أمثال قصائده : (المطلقة) و (أم اليتيم) و (اليتيم فى العيد) أسلوباً من الشعر لم يعرفوه فأكبروه . وحاول أن ينفض عن نفســه غبار التربة فزاول التعليم فى مدارس بغــداد . ثم كان من الذين صارعوا استبداد عبد الحميد بقوافيه المسمومة ؛ فلما خر الطاغية وأعلن الدستور تعاظمه النصر وازدهته الشهرة ، فاعتقد كما كان يعتقد الشعراء أن له أن يقول وعلى الناس أن يفعلوا ، وأن له أن ينفق وعليهم أن يبذلوا . فذهب إلى الأستانة يطلب المجد بوساطة شعره ، فكان قصارى أمره أن يكون خوجة فى مدرسة أو محرراً فى صحيفة . ثم سما به الحظ درجة فانتخب نائباً فى مجلس (المبعوثان) عن لواء المنتفق ؛ وظل فى عاصمة الخلافة مدة الحرب الماضية حتى أعلنت الهدنة . وكانت ثورة العرب على الترك يومئذ قد انجلت عن عرش أمية فى دمشق يجلس عليه فيصل الأول ، ومن حوله سيوف الثورة وألسنتها من أمثال ياسين ونورى وجعفر ورستم وساطع . وجاء الشاعر الطاح يبحث عن مكانه فى الدولة العربية الجديدة فلم يجد . فانقلب بعد طول الصبر وإدمان السعى إلى فلسطين خائب الأمل كاسف البال يبتغى العيش فيها من طريق التعليم . فلما انتقل العرش الهاشمى من الشام إلى العراق سنة ١٩٢١ ، عاد الرصافى إلى وطنه ورجا أن ينال فى بغداد ما لم ينله فى دمشق . وتهيأ خليفة النواسى لينادم خليفة الأمين ، وإذا الأمل الفسيح والطموح البعيد يسفران عن وظيفــة متواضعة فى وزارة المعارف ! حينئذ تفجر غيظه المكتوم على السلطان ورجاله فأعلنها شعواء بالهجاء المقذع والتهكم الفاحش . ووسعه (معاوية بنى هاشم) بحلمه ، وتنمد إساءته بإحسانه ، ففتح له الطريق إلى مجلس النواب ثم عاد فأغلقه دونه .

ونال الخذلان والحرمان من نفس معروف ومن جسده ففتر نشاطه وتراجع شعره ، ورضى من دهره بالمهلكات الثلاثة : شرب العرق ولعب الورق واستباحة الجمال !

وعلى هذه الحال المضنية أدركه الفقر والمرض والموت دون أن يجد آسياً من إيمانه ، ولا مواسياً من إخوانه !

***

قلت لصاحبى ذات ليلة من ليالىّ فى بغداد : أريد أن أزور الرصافى فقد زارنى مراراً ولم أزره . فقال : أتشجع على أن تدخل حى البغايا ؟ فقلت له : وما صلة هذا بذاك ؟ فقال إنه يسكن بينهن ، وقد تزوره واحدة أو أكثر منهن . فقلت له : هلم ، فما يسع زواره من العــذر يسعنا . ودخلنا البيت فإذا هو بيت الشاعر الأعزب المتلاف ، لا أثاث ولا نظام ولا حرمة . وكلمة الشاعر هنا بدل الأديب تدلك على أن ليس بالمنزل مكتب ولا مكتبة ؛ فقد كان الرجل لا يقرأ ، وإنما كان يتكىء على شدة ذكائه وحدة فهمه ، ويكتفى بما حصل فى شبابه من أدبه وعلمه . كان فى الردهة قوم يأكلون ويشربون ، وفى حجرة النوم آخرون يسمرون ويلعبون ، وكان الرصافى يتصدر هؤلاء ، فى يمناه كأس ، وفى يسراه ورق . فلما رآنى فض اللعب وأقبل بأنسه على . ثم أخذ يشرب ويتحدث باللغة العارية عن الحقائق العارية فى غير اكتراث ولا تحفظ . ويظلم الرصافى من يقيد عليه فى مثل هذه الحال . ولكن ندماءه يروون شعره أو يذيعون حديثه فيبلغ صاحب المُلك فيغضب ، أوصاحب الحكم فيعجب ، أو صاحب الدين فيصخب ، أو صاحب الخلق فيثور . وكل أولئك يعادون الرصافى ، ولكنهم يهابونه لشخصيته ، ويحترمونه لعبقريته ، ويتربصون به سوء المصير

هــذه صورة مصغرة لحياة الفقيد الكريم ، أما عقيدته فالأمر فيها لله لا للناس ، وأما شاعريته فالحكم عليها للناقد لا للمؤرخ . وقد يكون لنا إليها عودة . . .

احمد حسن الزيات

الرقص . . .

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

نشر أحد الكتاب مقالة صالحة في (البلاغ) الغراء ذكر فيها الرقص وبيّن محاسنه ، وحض الناس عليه . والرقص شيء حسن لا يجادل في فضائله وحسناته مؤمن

(الرقص) شيء حسن ليس به من حرج
أقل ما فيه ذهاب (م) الهم عن قلب الشجي[1]

وقد كان الآباء المتقدمون يتعلمون الرقص ويرقصون . ولإسحاق الموصلي (كتاب في الرقص والزفن[2]) ذكره ياقوت في (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)

وفي (السيرة الحلبية) : « عن أبي بشير أن النبي وأبا بكر مرا بالحبشة وهم يلعبون ويرقصون فلم ينكر عليهم ، وبه استدل أئمتنا على جواز الرقص حيث[3] خلا من التكسر »

وقال ابن عساكر في تاريخه الشهير :

« كان العباس بن الوليد بن عبد الملك فارساً سخياً ، وكان يقال له فارس بني مروان ، وافتتح مدناً وحصوناً من بلاد الروم . وكان الوليد يجد[4] بالعباس ابنه وجداً شديداً ، وكان له من قلبه أحسن موقع ، فأدبه بجميع الآداب حتى علمه الرقص وضرب الطبل »

وفي كتاب (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) :

« كان المنصور بن أبي عامر (سلطان الأندلس) قد عزم في يوم

(١) ابن رشيق صاحب العمدة

(٢) في اللسان : الزفن شبيه بالرقص وأصله اللعب والدفع وفي حديث عائشة : قدم وفد الحبشة فجعلوا يزفنون ويلعبون أي يرقصون

(٣) حيث (للتعليل) مولدة . وفي فاتحة المفصل : « ولعل الذين يغضون من العربية ويضعون من مقدارها حيث لم يجعل خيرة رسله وخير كتبه في عجم خلقه ولكن في عربه لا يبعدون عن الشعوبية منابذة للحق الأبلج » ومثل هذا الاستعمال في (كشافه) كثير

(٤) وجد به ، وتوجد به : أحبه .

على الانفراد . فأمر بإحضار من جرى رسمه من الأدباء والندماء ، وأحضر الوزير (أحمد بن شهيد) في محفة[1] لنقرس[2] كان يعتاده ، وأخذوا في شأنهم . فمر لهم يوم لم يشهدوا مثله ، وطما الطرب ، وسما بهم حتى تهايج القوم ورقصوا ، وجعلوا يرقصون بالنوبة حتى انتهى الدور إلى ابن شهيد . فأقامه الوزير أبو عبد الله ابن عباس فجعل يرقص وهو متوكئ عليه ، ويرتجل ، ويومئ إلى المنصور وقد غلبه السكر :

هاك شيخاً قاده عذر لكا ... قام في رقصته مستهلكا
لم يطق يرقصها مستثبتاً ... فانثنى يرقصها مستمسكا
عاقه عن هزها منفرداً ... نقرس أخنى عليه ، فاتكا
من وزير فيهم رقاصة ... قام للسكر يناغي ملكا
أنا لو كنت كما تعرفني ... قمت إجلالاً على رأسي لكا
قهقه الإبريق مني ضاحكاً ... ورأى رعشة رجلي فبكى

وهذه قطعة مطبوعة وطرفها الأخير واسطتها . وكان حاضرهم ذلك اليوم رجل بغدادي حسن النادرة سريعها ، وكان ابن شهيد استحضره إلى المنصور فاستطبعه[3] . فلما رأى ابن شهيد يرقص قائماً مع ألم المرض الذي يمنعه من الحركة قال : لله درك يا وزير ! ترقص بالقائمة وتصلي بالقاعدة . . . فضحك المنصور ، وأمر لابن شهيد بمال جزيل ولسائر الجماعة وللبغدادي »

وفي (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) : « قال محمد بن المؤمل : كنت مع أبي العتاهية في سميرية[4] ونحن سائرون

(١) (المحفة) مركب كالهودج إلا أن الهودج يقبب والمحفة لا تقبب. قال ابن دريد سميت بها لأن الخشب يحف بالقاعد فيها أي يحيط به من جميع جوانبه

(٢) (النقرس) ورم ووجع في مفاصل الكعبين ، وأصابع الرجلين (القاموس المحيط) ومن معانيه الهلاك والداهية العظيمة

(٣) (استطبعه) يريد استملحه : وجده أديباً مطبوعا « وكلام وشعر مطبوع نشأ من الطبع والسليقة » واستطبع مولدة . وفي (شفاء الغليل) المطبوع ما نشأ عليه الطبع ثم توسعوا فيه لكل ما يستملح

(٤) (السميرية) ضرب من السفن

إلى (أشمونى)[١] فسمع غناء من بعض تلك النواحى فاستحسنه وطرب وقال لى : أتحسن أن ترقص ؟ فقلت : نعم .

فقال : قم بنا نرقص .

فقلت : فى سميرية ؟ أخاف أن نغرق .

قال : إن غرقنا أليس[٢] نكون شهداء الطرب ؟...»

وفى (كتاب الأغانى) لأبى الفرج الأصبهانى : « قال عبدالله ابن جعفر : يا غلام ، مر فلانة أن تخرج ، فخرجت معها عود ، فقال عبد الله : إن هـذا الشيخ (يعنى صديقاً له) يكره السماع . فقالت : ويحه ! لو كره الطعام والشراب ، كان أقرب له إلى الصواب . فقال الشيخ : فكيف ذاك وبهما الحياة ؟

فقالت : ربما قتلا وهذا لا يقتل . فقال عبد الله : غنى

لمن ربع بذات الجيش (م) أمسى دارساً خَلَقا[٣]

فغنت ، فجعل الشيخ يصفق ويرقص ويقول :

هذا أوان الشد فاشتدى زِيَم[٤] ويحرك رأسه ، ويدور حتى وقع مغشياً عليه ... »

وذكر القوصى فى الوحيد أنه كان للشيخ ابن الفارض جوار بالبهنسا يذهب إليهن فيغنين له بالدف والشبابة وهو يرقص ويتواجد

وللشيخ برهان الدين القيراطى :

حبـذا مجلس أنس ضمنا بعد شـتات

مجلس يرقص فيـه طرباً قاضى القضـاة

---

(١) (دير أشمونى) وأشمونى امرأة بنى الدير باسمها ودفنت فيه وهو بقطر بل (مسالك الأبصار)

(٢) فى شرح الكافية : إذا كان جواب الشرط مصدراً بهمزة الاستفهام سواء كانت الجملة فعلية أو إسمية لم تدخل الفاء قال الله تعالى : (أرأيت إن كذب وتولى ألم يعلم) ويجوز حمل هل وغيرها من أدوات الاستفهام على الهمزة . قال الله تعالى (قل أرأيتكم ان آتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك ، الآية) وقال تعالى (قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من اله غير الله) ويجوز دخول الفاء فيها لعدم عراقتها فى الاستفهام قال الله تعالى (قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة فمن ينصرنى) وتقول ان أكرمتك فهل تكرمنى

(٣) (ذات الجيش) موضع

(٤) (الشد) العدو ، الركض (زيم) اسم فرس

وفى (يتيمة الدهر) لأبى منصور الثعالبى : كان القاضى التنوخى فى جملة القضاة الذين ينادمون الوزير المهلبى ، ويجتمعون عنده فى الأسبوع ليلتين على التبسـط فى القصف[١] ، وهم ابن قريعة وابن معروف والقاضى التنوخى وغيرهم ، وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها ، وكذلك كان الوزير المهلبى ، فاذا تكامل الأنس ، وطاب المجلس ، ولذ السماع ، وأخذ الطرب منهم كل مأخذ — وهبوا ثوب الوقار للعقار ، ويرقصون أجمعهم . وإياهم عنى السرى بقوله : « مجالس ترقص القضاة بها » فاذا أصبحوا عادوا لعادتهم فى التوقر والتحفظ بأبهة القضاة ، وحشمة المشايخ والكبراء .

هذا قليل من كثير من أخبار الرقص والراقصين من السلف الصالح ، فكبيرة أن نحرم ما حللوه ، وأن نستهجن عملا قد استحسنوه ، وهم الناس عندنا ، وهم لنا قدوة . بيد أنا نقول : ألا يرى الكاتب الفاضل والعقلاء من أهل الرجولية والحزم أنا (معشر العرب) أحوج فى هذا الوقت إلى إتقان فن (الإنقاذ) منا إلى تعلم فن (الرقص) ؟ و« اليوم أمر وغداً خمر» وأنا حقيقون أن نتمثل بما تمثل به البطل الأموى (عبد الملك بن مروان) حين أقبلت عليه تلك الحوراء الباهرة وهو فى محاربة (ابن الأشعث) :

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم دون النساء ولو باتت بأطهار[٢]

حتى إذا نجونا مما نحن فيه أجبنا داعى الطرب ، ورقصنا الرقص العجب ؟

---

(١) (القصف) اللهو واللعب ويقال أنها مولدة ، والقصف الجلبة والاعلان باللهو (اللسان)

(٢) البيت للأخطل فى يزيد بن معاوية

الواحـــد !...

للأستاذ عبد المنعم محمد خلاف

« البحيرة الكبيرة من النبع الصغير . هذه الحرب من قلب واحد . صمامات التيارات العظمى . الفرد المنشود عالم معقد . التبادل بين الفرد الواحد والانسانية الجامعة . توزيع الدنيا على الأفراد والأفراد على الدنيا . من جذور الشجرة الانسانية إلى ثمارها . لا بد لحياة الشجرة من اعتراف كل جزء فيها بكل جزء »

تظهر بوضوح قيمة الفرد البشرى الواحد ، ومبلغ آثار تصرفه ، فى تدبير تشرشل أو هتلر أو روزفلت أو إينونو أو ابن سعود أو ستالين أو أيزنهاور أو أمثالهم . فإن تصرف أحدهم يجر على أمته إما الحسنى والفخار ، وإما السوء والدمار .

فى أمثال هؤلاء يتبين كيف يجر فرد واحد العالم ، أو شعبه وراءه فيخفضه أو يرفعه . ومعنى هذا أن الفرد البشرى ذو قيمة كبرى فى حياة الاجتماع ، وأن وضعه هذا يحتم عليه وعلى الدولة أن يحترسا دائماً من سوء تصرفاته ، وما يحليه على الاجتماع من الضر .

فتصرف الفرد فى الحياة الاجتماعية أشبه بتصرف ماء مستبحر من ثلم رخو ، على أرض منخفضة ، يبدأ ضعيفاً ، ثم لا يلبث أن يتحول سيلاً حَدُوراً لا يستطاع ردُّه .

ومهما قيل فى حكم الديمقراطية المطلقة ، والشورى الفضفاضة ، فروح الانتقال والبطولة ، وفتح آفاق جديدة تتركز غالباً فى فرد واحد . وخصوصاً عند الأزمات الخطيرة ، ويكون هذا الفرد حينئذ كموضع نبع الماء فى البحيرة التى يكونها ، ويكوّن آثاره وعظمته بها . فموضع النبع صغير ، ولكنه هو البحيرة الكبيرة فى الواقع !

وكيف انبثق هذا الدمار فى هذه الحرب على العالم ؟ لقد انبثق من قلب رجل واحد ملىء قلبه بالحقد والضغينة على الذين رآهم لم ينصفوا أمته . وتجمع الحقد والضغن فى قلبه ، كما يتجمع القيح والصديد والرَّحَضُ فى رأس خرَّاج ، فيصيب جسم أمته بالحمى والرعدة ، ولا يمكن سده إلا بعد التصفية النهائية .

فهل بعد هذا يحتقر بعض الأمم شئون الفرد الواحد ويتركونه مهملاً ، زاعمين أنه لا وزن له إزاء الأمة أو العالم ؟ !

وهل قام الخير ، أو قام الشر إلا بواحد ؟ الواحد هو أساس العدد اللانهائى .

وهكذا إذا أراد الله أن يتصل بالناس جميعاً اتصال تغيير فى نظمهم المعاشية والسياسية والدينية ، وضع يده فى قلب واحد ، وسلط منه تياراً خفياً على الجميع . فاذا كان يريد خيراً بالعالم أطلق تيار الخير من قلب رجل خير ، وإذا كان يريد نقمة وقصاصاً أطلق تيار الصعق والحرق السريع أو البطىء من قلب رجل شر .

فلنجتهد أن نجعل قلوب الأفراد مواضع ليد الله حين يريد الخير.

* * *

والعناية والمشيئة الإلـٰهية التى تخرج وجوه الناس ونفوسهم وعقولهم صوراً شتى متمايزة مهما كثرت الأعداد ، بحيث لا يتشابه وجهان ، ولا يتماثل عقلان فى كل شىء حتى ولو كانا لتوأمين ، ترشدنا إلى أن نرى فى كل فرد جانباً متميزاً من الإنسانية ، وأنه موضع عناية وقصد من مخرجه .

ولو فهمت الدولة قيمة القصد فى الفرد الواحد وخطره فى الحياة فى حالتى صلاحه وفساده ، إذن ما كانت تسمح لنفسها أن تترك فرداً دون أن تمر عليه بمنظار مكبر يكشف عن أدوائه ومنافعه .

فالفرد إما بؤرة ظلام نجس وفساد متنقلة تحمل الجراثيم الفتاكة معها حيث حلت ... وإما بؤرة صلاح وطهارة وإشعاع تحمل وتعكس عوامل الحياة والجمال معها حيث حلت . وشتان ما بينهما ! فكيف تهمله الدولة هذا الإهمال الشنيع وهو ما هو فى جسمها ؟ !

لو أفلت فرد شرير شيطانى من قيادتها وحراستها إذاً لعاث فساداً فى حرثها ونسلها وعمرانها . ولو ضاع فرد ملكى من رعايتها وتعهدها وتشجيعها ، إذاً لضاع عامل عظيم من عوامل نموها وارتقائها وسعادتها . ولعل فيه ما يرفع النوع كله .

ويظن أكثر الناس أنه يكفى لإنشاء « الفرد الإنسانى » أن تطرح بذرة منوية فى رحم من الأرحام ، تولد بعد مدة ، فتنمو حتى تكون ذلك الجسم المعهود الذى يملأ أسواق الحياة ، ونسوا أنهم فى إنشاء شجرهم وغراسهم وحيوانهم يسلطون يقظتهم وعملهم وتعهدهم الدائم ، حتى يحصلوا على ما يريدون من الأصناف المطلوبة

المرغوبة . وأنهم يستهترون ويحاربون الآفات التي تدنو من حرثهم وحيوانهم .

ألا إن الإنسان المنشود عالم معقد ليس الجسم الظاهر إلا وعاءه وقالبه ! أما سره ومعناه ولبابه كما يريد رب الحياة من « النوع » فأمور لا تظهر إلى عالم الاجتماع إلا إذا اجتمعت لها عوامل الحياة الصالحة بنسب موزونة .

وإن الروح التي عنها يتحدثون هي نتيجة تفاعل الحياة الحيوانية في الجسم مع نتائج التربية والبيئة والتعليم وجميع المؤثرات . إنها كائن ينفصل عن الجسم كنتيجة وجود هذه العوامل الأرضية المختلفة . وإن من أدواتها ذلك اللوح الخفي السريع التأثر الذي ينطبع فيه ما يقع عليه ، أو يتخايل أمامه من المؤثرات .

فالذين يلقون بذور الإنسان في الأرحام ولا ينتقونها قبل إلقائها ، ولا يهيئون لها الجو الصالح وهي في مستودعها ، ولا البيئة الصالحة وهي في نشأتها ، ويتركونها هكذا تتداولها العوامل الطبيعية مصادفة ؛ هؤلاء ينبغي ألا ينتظروا من الحياة أن تعطيهم تلك الوحدات الإنسانية المنشودة القريبة من الكمال في صفات نوعها .

* * *

والإنسانية ملك الفرد ، والفرد ملك الإنسانية . وما كان من المستطاع أن يحصل الفرد الإنساني ما يحصله الآن من الأفكار والمعلومات والتجارب والأرزاق والمتاع لو أنه عاش فريداً متأبداً ، أو لو أنه اعتزل حياة الاجتماع .

فنحن جميعاً بإزاء بحار المعاني يأخذ كل فرد منا غرفة منها يلونها في إنائه بلونه الخاص ، ثم يقدمها إلى غيره من الناس . وكلما أضيف فرد إلى المجموع زاد أفق من آفاق الحياة في الأرض . ولن يمكن أن يحل فرد محل آخر ، فإن كل ثمرة إنسانية لها سر خاص لا يرى في سواها . وإني ما أجلس مجلساً مع فرد ما إلا أرى فيه صورة للدنيا لست أراها في مجلس مع غيره .

ومن العجيب أن كل فكر يريد أن يطبع الإنسانية على غراره ويحملها على حياة تصدق منطقه ، مع أن التوزيع والتمايز بين الوحدات الإنسانية قانون مطرد .

وينطوي فكر كل فرد على صورة للدنيا غير الصور التي في أفكار الآخرين ، فكل فرد يرى الدنيا من خلال نفسه ، والأكوان عدد العقول .

وما أعجب أن تنظر إلى وجوه الناس ورءوسهم ! إنها صفحات يبدو للناظر العجلان أنها سطحية ضحلة . ولكنها للناظر المتملي المتفرس تقذف به إلى لا نهائية ذات أعماق . والعيون هي مسالك تلك الأعماق !

وكذلك يثير وجه كل فرد وعقله صورة من صور الدنيا . وكل فرد كأنه الحياة كلها مستقلة . حتى ليخيل إليك أن الدنيا الإنسانية تنقص بموت فرد واحد ، وأن مكانه لا يملؤه غيره سواء علا أم سفل ، علم أم جهل . فتوزيع الدنيا على الأشخاص ، وتوزيع الأشخاص على الدنيا يعطي صورة فنية أو حبكة مسرحية يحشد فيها الفن الرفيع والإخراج البديع .

ولذلك قالت التوراة والقرآن : « أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ... »

ومن هنا جاءت قداسة الحياة الفردية في الشرائع ، واستنكر الاعتداء عليها استنكاراً إجماعياً . وقد أعطت الإنسانية الفرد حرية تخليها لنفسها واستوحتها من إحساسها العام وضميرها المشترك .

* * *

والإنسانية كجسم شجرة واحدة ؛ فيها جذور لا بد أن تعيش في الطين والظلام والعفونة لتحلل غذاءها وتأخذه عناصر بسيطة تركب منه ما تشاء من اللباب والقشور والأزهار والثمار والعطور إلى آخر ما في عالم الأشجار .

وفيها سيقان لا بد منها لتحمل غيرها وترفعه إلى عالم الجو والضوء والنسمات .

وفيها أوراق تبلغ من الكثرة حداً كبيراً ترتفع إلى مستوى الزينة ويشترك في صميم العمل الضروري لحياة الشجرة ، لأنها رئات يتنفس بها الشجر .

وفيها أزهار وهبها واهب الحياة العطر والجمال ، وأخرج فيها روحاً خاصاً يخيل للناس أنها ليست من عالم الطين والعفونة والتحلل والظلام .

وفيها ثمرات هي صناديق أسرار الشجرة ومستودع حياتها المقبلة . وهي روح الشجرة تحمل سر نوعها من الماضي للمستقبل .

ولا مفر من اعتراف كل جزء من الشجرة بكل جزء آخر لتحيا جميعها . ولا بد أن يعلم كل جزء أنه وضع في موضعه الرفيع

اقتحم العرب المحيط
قبل أن يقتحمه كلمبس
للآنسة دولت حسن الصغير

نشر فى مقتطف فبراير الماضى نص خطبة ألقاها الأب الفاضل أنستاس الكرملى ، بين فيها أن أبناء يعرب القدامى اختلفوا إلى جزر القصدير ببحر المانش ، وعرفوا تيار الخليج Golf Stream واتخذوه لهم ناقلا إلى تلك الربوع المعروفة الآن باسم المكسيك . واستدل على ذلك من الأسماء العربية للحيوان والطير التى تعرف بها إلى اليوم فى تلك البقاع .

وكنت أحسب قبل مطالعة كلمته الرائعة ، أنه سيورد من المراجع العربية ما يثبت أن من أبناء قحطان من اقتحم البحر المحيط ليرى ما به من الأخبار والعجائب ويقف على نهايته . غير أن الأب — أبقاه الله ذخراً للعروبة — اعتمد فى كل ما قرره على مصنفات الأغراب فحسب ، إلا ما وجده نبها بنفسه .

وليس لى أن أفند ما جاء به العلامة من تحقيقات لغوية ، فما إلى هذا رميت فى هذا المقال — ولكننى سأعنى بالتحدث عمن ركب من العرب البحر المحيط قبل أن يركبه كلبس ، معتمدة على ما جاء بالمصادر العربية

ثبت قطعاً أن خرستوف كلبس ليس أول من حط رحاله بالدنيا الجديدة ، ولكن رحلته إليها هى التى فتحت أعين الناس على هذا العالم الجديد ، فبدئ من بعده الظعن إليه والاستعمار .

حدثنا الأب أنستاس بنبأ رحلة الراهب برندان إلى جزيرة إيسلنده (المعروفة عند العرب باسم ثولى) ، وجزائر الكنارى (الخالدات) ، ثم نزوله على الساحل الأمريكى فى النصف الثانى من القرن السادس ، كما حدثنا بخبر بعض الرهبان الأرندليين — الذين كانوا يدهشون لركوب العرب تيار الخليج القادم من المكسيك — ونزولهم فى القرن الثامن الميلادى إلى سواحل أمريكا الشرقية . غير أن التاريخ غمط حقوق بعض الرواد المغامرين من يعرب ، الذين ركبوا الأهوال محاولين اختراق الخضم المحيط المعروف فى ذلك الحين باسم بحر الظلمات

الكرة الأرضية والبحر المحيط عند العرب :

نقل العرب كتاب المجسطى لبطليموس القلوذى فى مطلع العصر العباسى ، وقالوا فى أزياجهم وكتبهم الجغرافية إن الأرض

أو الوضيع ليخدم نفسه ويخدم الجميع . والسفالة فى الوضع أو العلو فيه ، والعلانية أو الخفاء كلها نظرات اعتبارية فى الظاهر ، والحقيقة أن نصيب العمل واحد ، والنتيجة واحدة : هى حياة الشجرة بحياة أجزائها ، وحياة الأجزاء بحياة الأم .

وينبغى ألا ينظر جزء من الشجرة لآخر ، وإنما ينظر لليد التى وضعته فى كل ليؤدى دوره وخدمته ، ويكفى عزاء لما سفل واختفى أن حياته كثيراً ما تكون أثبت وأدوم مما علا .

ويكفى عزاء لما علا وارتفع عن سرعة فنائه أنه أجمل وأشهر . وكلا المنهيين جدير أن يحار بينه وبين قسيمه الاختيار .

ألا إننا ممثلون نؤدى أدواراً يرسمها ويحملنا عليها مؤلف رواية الحياة ومخرجها ، بديع السموات والأرض ! فينبغى أن نعرف مواضعنا الحقيقية من الكون ، وأدوارنا فيه نؤديها على أكمل وجه ، ثم نختفى وراء « الكواليس » إلى يوم إصدار الرواية الأخرى التى سنؤديها فى المسرح الأكبر ، فى الكون الواسع !

* * *

فقط اضمنوا لكل عامل بارع مهما كانت مواد عمله خسيسة أو كريمة مكافأة وتكريماً وتعظيماً لمواهبه . ولا تقصروا اهتمامكم وتمجيدكم على الأجزاء الرفيعة الملونة المزوقة من شجرة الإنسانية : والساسة والحكام والأثرياء ، ومن إليهم ممن الذين خصهم المجتمع الجاهلى بالاحترام ، بل امنحوا وقدموا ذلك الاهتمام والتمجيد لكل عامل بارع فى عمل من أعمال الحياة الإنسانية ، تتفتح لكم أبواب من سعادة الحياة ما كنتم تتصورون أن وراءها شيئاً ذا قيمة وتأثير فى حياتكم يعادل تأثير السياسة والحكم وما إليهما .

اقضوا على تخصيص الحكام وذوى السلطان والثراء بتعظيمكم وخشيتكم ، وانظروا لغيرهم كذلك من العمال والكناسين وغيرهم وكرموهم كرامتهم ، فان لهم فى الدولة أثراً لا بد منه كآثار « أصحاب الدولة » ! .

عبد المنعم محمد خلاف

كروية . جاء فى مروج الذهب[١] للمسعودى : « ذكروا أن الأرض مستديرة ، ومركزها فى وسط الفلك ، والهواء محيط بها من كل الجهات ، وأخذوا عمرانها من حدود الجزائر الخالدات فى بحر أقيانوس إلى أقصى عمران الصين » و « علموا أن الشمس إذا غابت فى أقصى الصين كان طلوعها على الجزائر العامرة المذكورة التى فى بحر إقيانوس . وإذا غابت فى هذه الجزائر كان طلوعها فى أقصى الصين . وذلك نصف دائرة الأرض ، وهو طول العمران الذى ذكروا أنهم وقفوا عليه » . ولعمرى إن هذا تحديد دقيق لما يعرف اليوم جغرافيا باسم نصف الكرة الشرقى .

وقال المسعودي أيضاً : « إن أقصى العمران فى المشرق إلى حدود بلاد الصين والسيلى إلى أن ينتهى إلى بحر أقيانوس المظلم المحيط . وأقصى عمران المغرب ينتهى إلى بحر أقيانوس المحيط أيضاً »[٢] .

فكأن الأقيانوس المحيط كان — بحسب ما عرفوه — متصلا من أقصى العمران فى الشرق إلى أقصى العمران فى المغرب . وهو مايعرف اليوم جغرافيا باسم نصف الكرة الغربى .

وتواترت الأخبار قديما بأن بحر الظلمات هذا لا تدرك غايته ، ولا يعلم منتهاه . وأنه بحر لا تجرى فيه جارية ولا عمارة . جاء فى كتاب الشريف الإدريسى[٣] — نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق — « ولا يعلم أحد ما خلف هذا البحر المظلم ، ولا وقف بشر فيه على خبر صحيح ، لصعوبة عبوره ، وظلام أنواره ، وتعاظم موجه ، وكثرة أهواله ، وتسلط دوابه ، وهيجان رياحه . وبه جزائر كثيرة منها معمورة وغير معمورة » .

وكان يعزز ما تواتر عليه الناس عنه ، أسطورة مأثورة عن قدامى اليونان تقول بأن هرقل بنى أعمدة من النحاس والحجارة . حداً بين بحر الروم والأقيانوس . وعلى أعلاها كتابه وتماثيل مشيرة بأيديها أن لا طريق ورائى لجميع الداخلين إلى ذلك البحر

(١) ص ٥١ .

(٢) وجاء فى كتاب التنبيه والاشراف للمسعودى فى ذكر بحر أوقيانوس ص٥٩ « وأكثر نهاياته مجهولة عند بطليموس (القلوذى صاحب المجسطى) وغيره . فانه يبتدىء من نهاية العمارة فى الشمال إلى أن يصير إلى المغرب . وينتهى إلى نهاية العمارة فى الجنوب وليس له فى غربيه ولا شماليه نهاية محدودة . وفى هذا البحر الجزائر المسماة برطانية وهي اثنتا عشرة جزيرة . ويتصل ببحر الصين مما يلى الزابج وجزائر المهراج وشلاهط وهرلج . الخ» .

(٣) ألف الشريف الادريسى لروجر الثانى ملك صقلية كتابه فى الجغرافية سنة ٥٤٨ هـ وقد نشر فى أوربا بعض قطع منه .

المحيط . وأشار المسعودى إلى هذه النصب بما نصه[١] . « وعلى هذا البحر المحيط مما يلى الأندلس ، جزيرة تعرف بقادس Cadix مقابلة لمدينة شذونة .. وفى هذه الجزيرة منارة عظيمة عجيبة البنيان ، على أعاليها عمود عليه تمثال من النحاس يرى من شذونة وورائها لمِظَمه وارتفاعه . ووراءه فى هذا البحر على مسافات معلومة تماثيل أخرى فى جزائر يرى بعضها مع بعض ، وهى التماثيل التى تدعى الهرقلية ، بناها فى سالف الزمان هرقل الجبار ، تنذر من رآها أن لا طريق وراءها ولا مذهب ، بخطوط على صدورها بينة ظاهرة ببعض الأقلام القديمة ، وضروب من الإشارات بأيدى هذه التماثيل تنوب عن تلك الخطوط لمن لا يحسن قراءتها . صلاحا للعباد ، ومنفعاً لهم من التغرير بأنفسهم فى ذلك البحر » .

وكان الحكماء والجغرافيون من العرب ، يعرفون أن هذا البحر موصل إلى الهند . فقد جاء فى كتاب السماء والعالم[٢] لأرسطو فى الدليل على صغر الأرض أن الموضع الذى يدعى أصنام هرقل ، يختلط بأول حد من حدود الهند . ولذلك قالوا إن البحر واحد »[٣] .

رواد المحيط من العرب

واقتحام أبناء قحطان بحر الظلمات ، وركوبهم أهواله أمر لا مرية فيه ، وقد بسط الأب أنستاس الدليل على ذلك نقلا عن هيرودوتس وعن استرابون . ونحن بدورنا نبسط الدليل نقلا عن المصادر العربية .

جاء فى مروج الذهب صفحة ٧١ فى ذكر الكلام عن البحر المحيط « وله أخبار عجيبة ، وقد أتينا على ذكرها فى كتابنا (أخبار الزمان)[٤] فى أخبار من غرر وخاطر بنفسه فى ركوبه ، ومن نجا

(١) التنبيه والاشراف ص ٦٠

(٢) نقل هذا الكتاب ابن البطريق ، ولثامسطوس شرح الكتاب كله ، نقله وأصلحه يحيى بن عدى — أخبار الحكماء للقفطى ص ٣٠ .

(٣) التنبيه والاشراف ص ٦١ .

(٤) كتاب أخبار الزمان ، ومن أباده الحدثان ، من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الدائرة » هو أكبر وأهم كتاب للمؤلف الجغرافي الكبير أبى الحسن على بن الحسين المسعودى ، المتوفى سنة ٣٤٥ هـ . تعب كثيرمن الباحثين فى التنقيب عنه . ولاريب أن فقده خسارة كبيرة للعلم والبحث والتأريخ . ولا توجد منه — فيما نعرف — إلا نسخة واحدة خطية ببلاد شنقيط بالصحراء الافريقية . والشنقيطيون يضنون بها على العلم والحقيقة والتاريخ . ترى متى يسمح الزمان بنشرها .

منهم ومن تلف ، وما شاهدوا منه وما رأوا » .

وإذا لم يحفظ لنا التاريخ قول المسعودى فى أخبار من ركب هذا البحر ، فقد ذكر لنا الإدريسى فى كتابه الجغرافى النفيس قصة الإخوة المغرورين أو المغررين الذين خرجوا من لشبونة ، وضربوا فى عرض المحيط ، ثم عادوا يقصون على الناس مشاهداتهم. ولعلهم حاولوا عبثاً إقناع القوم بوجود دنيا جديدة وآفاق حديثة ، وراء لجج المحيط ، فرماهم البعض بالغرور والبعض بالتغرير . فقصتهم ولا ريب ، كانت معروفة قبل المسعودى — والأرجح أنها وقعت فى القرن الثالث الهجرى — التاسع المسيحى — وتناقلها الناس بعد ذلك فلحقها شىء من التحوير والتبديل ، شأن جميع الروايات التى تجرى على الألسن وتدخل فى عداد الأساطير . لذلك سنورد القصة كما استقاها الإدريسى من الأفواه فى منتصف القرن السادس الهجرى — الثانى عشر الميلادى .

قال فى كتاب — نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق — .

« ومن مدينة لشبونة ، كان خروج المغررين فى ركوب بحر الظلمات ، ليعرفوا ما فيه وإلى أين انتهاؤه كما تقدم ذكرهم . ولهم بمدينة لشبونة بموضع من قرب الحمه ، درب منسوب إليهم يعرف بدرب المغررين ، إلى آخر الأبد . وذلك أنه اجتمع ثمانية رجال كلهم أبناء عم ، فأنشأوا مركباً حمالا ، وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر . ثم دخلوا البحر فى أول طاروس (كذا) الريح الشرقية . فجروا بها نحواً من ١٢ يوماً ، فوصلوا إلى بحر غليظ الموج ، كدر الروائح ، كثير القروش ، قليل الضوء ، فأيقنوا بالتلف . ثم فردوا قلاعهم فى اليد الاخرى ، وجروا فى البحر فى ناحية الجنوب ١٢ يوماً ، فخرجوا إلى جزيرة الغنم ، وفيها من الغنم ما لا يأخذه عد ولا تحصيل ، وهى سارحة لا راعى لها ، ولا ناظر إليها . فقصدوا الجزيرة ، فنزلوابها ، فوجدوا عين ماء جارية وعليها شجرة تين برى . فأخذوا من تلك الغنم فذبحوها ، فوجدوا لحومها مرة لا يقدر أحد على أكلها . فأخذوا من جلودها وساروا مع الجنوب ١٢ يوماً إلى أن لاحت لهم جزيرة فنظروا فيها إلى عمارة وحرث . فقصدوا إليها ليروا ما فيها . فما كان غير بعيد حتى أحيط بهم فى زوارق هناك . فأخذوا وحملوا فى مركبهم إلى مدينة على ضفة البحر ، فأنزلوا بها فى دار . فرأوا رجالا شقراً زعراً شعور رؤوسهم سبطة ، وهم طوال القدود ، ولنسائهم جمال عجيب .

فاعتقلوا فيها فى بيت ثلاثة أيام ، ثم دخل عليهم فى اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان العربى ؛ فسألهم عن حالهم وفيما جاءوا ، وأين بلدهم ، فأخبروه بكل خبرهم . فوعدهم خيراً ، وأعلمهم أنه ترجمان الملك .

فلما كان فى اليوم الثانى من ذلك اليوم أحضروا بين يدى الملك . فسألهم عما سألهم الترجمان عنه ، فأخبروه بما أخبروا به الترجمان بالأمس من أنهم اقتحموا البحر ليروا ما به من الأخبار والعجائب ، ويقفوا على نهايته . فلما علم الملك ذلك ضحك ، وقال للترجمان : خبر القوم أن أبى أمر قوماً من عبيده بركوب هذا البحر ، وأنهم جروا فى عرضه شهراً إلى أن انقطع عنهم الضوء ، وانصرفوا فى غير حاجة ولا فائدة تجدى .

ثم أمر الملك الترجمان أن يعدهم خيراً ، وأن يحسن ظنهم بالملك ففعل . ثم صرفوا إلى موضع حبسهم إلى أن بدأ جرى الريح الغربية ، فعمر بهم زورق ، وعصبت أعينهم ، وجرى بهم فى البحر برهة من الدهر ، قال القوم : قدرنا أنه جرى بنا ثلاثة أيام بلياليها ، حتى جىء بنا إلى البر فأخرجنا ، وكتفنا إلى خلف ، وتركنا بالساحل إلى أن تضاحى النهار وطلعت الشمس ، ونحن فى ضنك وسوء حال من شد الأكتاف ؛ حتى سمعنا ضوضاء وأصوات ناس فصحنا بأجمعنا ، فأقبل القوم إلينا فوجدونا بتلك الحال السيئة ، فحلونا من وثاقنا ، وسألونا ، فأخبرناهم بخبرنا . وكانوا برابرة . فقال لنا أحدهم : أتعلمون كم بينكم وبين بلدكم ؟ فقلنا لا ، فقال : إن بينكم وبين بلدكم مسيرة شهرين . فقال زعيم القوم : وا أسفى . فسمى المكان إلى اليوم أسفى ، وهو المرسى فى أقصى المغرب »

والذى نستخلصه من رواية الإدريسى ، أن الإخوة الذين نعتوا ظلما باسم المغررين أو المغرورين ، ركبوا البحر المحيط من لشبونة عاصمة البرتغال الحالية ، فضربوا فى عرضه غرباً ، ثم انعطفوا نحو الجنوب ، فوطئوا أرض جزيرة بها غنم وتين برى ، بعد مسيرة أربعة وعشرين يوما (؟) . ونحن نستبعد أن تكون جزيرة الغنم هذه إحدى جزر اللازورد (أزوره) لأنها تقع غرب

لشبونة لا إلى جنوبها الغربى ؛ ولأنها جزر مسكونة من قديم الزمان عرفها القرطاجنيون والنورمانديون والعرب ، كما جاء فى دائرة المعارف الفرنسية . وقد هاجر إليها فريق من عرب أسبانيا بعد طردهم من الأندلس .

والذى نظنه ، هو أن هؤلاء الإخوة حطوا رحالهم فى إحدى جزر برمودة أو جزر الانطيل ، إن لم يظعنوا إلى أحد أنحاء المكسيك ، بلاد التين البرى « وفصائل الصبير » ؛ والتى كانت تزخر بقطعان الماشية المعروفة عند الغربيين باسم البافالو . (بالفرنسية Bison) أو قطعان اللاما Lama إحدى فصائل الأغنام الأمريكية. والذى استوقفنا فيما تواتر على ألسنة الناس فى هذه القصة هو ذكر الغنم والتين البرى . أما الغنم فكانت الدنيا الجديدة عامرة بقطعان البافالو واللاما — وكاد النوع الأول ينقرض الآن لأن المستعمرين الأوربيين أكثروا من صيده للانتفاع بجلده — وأما التين البرى فنحسب أنه تعبير وصفى لفصائل العائلة الصبارية التى تنبت فى أمريكا الوسطى عامة وسواحل المكسيك خاصة ، وهى مشهورة بها كشهرة مصر بنيلها وأهرامها . أفيحق لنا أن نظن أن ما هبط إليه الإخوة « المغامرون » كان أحد أنحاء المكسيك التى منها يخرج تيار الخليج ويعرّج فيها :

هذا رأى لا يحمل إلا على محمل الظن .. والله أعلم .

وهناك قصة لمغامر آخر اقتحم البحر المحيط ، ولا يعرف إلا الله مصيره ومن تبعه . فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى (أوائل القرن الرابع عشر الميلادى) يحدثنا ابن فضل الله العمرى فى كتابه مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار عن الملك موسى بن أبى بكر أحد ملوك « مالى » فى السودان الغربى ، وكان معاصراً لصاحب مسالك الأمصار فى أيام الملك الناصر بن قلاوون . قال « قال ابن أمير حاجب والى مصر ، عن الملك موسى ابن أبى بكر : سألته عن سبب انتقال الملك إليه فقال : إن الذى قبلى كان يظن أن البحر المحيط له غاية تدرك . فجهز مئين من السفن ، وشحنها بالرجال والأزواد التى تكفيهم سنين ، وأمر من فيها ألا يرجعوا حتى يبلغوا نهايته ، أو تنفد أزوادهم . فغابوا مدة طويلة ، ثم عاد منها سفينة واحدة ، وحضر مقدمها ، فسأله عن أمرهم فقال : سارت السفن زمنا طويلا حتى عرض لها فى البحر فى وسط اللجة واد له جرية عظيمة ، فابتلع تلك المراكب وكنت آخر القوم ، فرجعت بسفينتى . فلم يصدقه .. فجهز ألفى سفينة ، ألفاً للأولاد ، وألفاً للأزواد . واستخلفنى، وسار بنفسه ليعلم حقيقة ذلك . وكان هذا آخر العهد به وبمن معه » . فهل وصل هذا الملك المغامر بقافلته العريضة المزودة إلى بر السلامة أم ابتلعته ومن معه لجج المحيط ؟ لا نحسب أن إقدام هذا الملك الجسور على اقتحام البحر كان من قبيل الظن بان للمحيط غاية تدرك ، فلربما كان لديه من الأنباء والوقائع مادعاه أن يكذب مقدم السفينة العائدة ، ويركب أهوال البحر بألفى سفينة ليصل إلى غايته .

ومما يغلب على الظن أن كلمبس وقف على خبر الإخوة المغرورين ، وعرف أنهم هبطوا إحدى الجزر فيما وراء المحيط — ولعله كان على علم بنبأ رحلة برندان — ولا جدال فى أنه اطلع على ترجمات الكتب الجغرافية العربية التى تقول بكروية الأرض ، وبأن البحر المحيط موصل إلى الهند . ثم استطاع أن يقنع الملكة إزابلة ، وسار بسفنه الشراعية الثلاث فى ٣ أغسطس سنة ١٤٩٢ متخذا سبيله فى المحيط غرباً ، ثم جنوبا بغرب ، حتى وصل فى ١٢ أكتوبر إلى جزيرة غوانى هانى (التى عرفت فيما بعد باسم سان سلفادور) وكأن معاصريه لم يجدوا فيما أتى به بدعا ، ولم يروا فيه أول مقتحم لبحر الظلمات. فضرب لهم مثل البيضة المعروف ، ومات فى بلد الوليد عام ١٥٠٦ آسفا محسورا .

وبعد فهذه حقائق مستقاة من المصادر العربية ، تثبت أن أبناء يعرب جابوا بحر الظلمات قديما . على أن أخبار مقتحميه منهم وما شاهدوا منه وما رأوا لم تلق من الناس والمؤرخين الأقدمين اهتماماً كبيرا . وهناك ولا ريب كثير من رواد المحيط الناطقين بالضاد ركبوا فى قوافل بحرية كبيرة مثل ملك «مالى» ، بيد أنهم لم يجدوا من يؤرخ لهم . ولا ريب أن بعضهم حط رحاله فى ربوع أمريكا الوسطى وجزائرها . لذا لا نعجب أن رأينا فيها كثيراً من الأسماء العربية العائدة إلى الحيوان والطير.

(الاسكندرية) **دولت حسن الصغير**

يوحنا الدمشقي

JOHANNES DAMASCENUS

للدكتور جواد علي

تتمة

ومن آراء هذا القديس أن النبي الكريم كان قد تلقى تعاليمه من أحد أتباع «آريانوس» "Arius" "Arianers" (المتوفى سنة ٣٣٦ للميلاد) والذى كان قد أنكر ألوهية المسيح فحرمه مجمع نيقيا "Nikäa" الذى انعقد فى عام ٢٥٣ للميلاد ، ثم أكد هذا التحريم المجمع (Synod) الثانى الذى انعقد فى القسطنطينية . وكانَ من أشد خصومه (أثناسيوس) Athansius رئيس أساقفة الاسكندرية القائل على العكس بألوهية المسيح (١).

وهو قول ردد صداه المستشرقون فيما بعد . وقد فاتهم بأن البدعة «الأريوسية» أو «الآريانية» لم تكن معروفة فى البلاد العربية ، فلا يمكن أن يكون الرسول قد تعرف إلى أحد من أتباع هذه الشيعة . وقد فاتهم أيضاً بأن النسبة إلى «الأريوسية» كانت شائعة بين الفرق النصرانية ، فكانت كل شيعة من الشيع النصرانية تنسب الشيعة المعارضة لها إلى هذا الإسكندرى الذى حرمته مجامع المسيحيين . وقد سلك يوحنا فى مواضع من ميامره مع «النوفيسيتين» والمعارضين الآخرين نفس هذا السلوك ، ونسبة دراسة النبي على أحد «الأريانيين» — وهو قول واه لا تؤيده الشواهد التاريخية — هو من هذا القبيل (٢).

وخلاصة ما يمكن أن يقال ، هو أن يوحنا كان قد خاف على دينه من الزوال ، وهو رجل دين وصاحب عقيدة ، وأنه وهو فى بلاط خليفة دينه يخالف دينه عرضة للمناقشة فى الدين وهدف للجدال كما كان يحدث ذلك دوماً لكل ذمى يتولى مركزاً سامياً فى قصور أمراء المسلمين . وقد ساءه ما رآه من دخول أبناء دينه أفواجا أفواجا فى الإسلام ، فأراد أن يضع لهم منهجاً ثابتاً فى الكلام وطريقاً واضحاً لإخوانه من أبناء دينه كما يفهم ذلك من ميامره ومن كتابه الذى ألفه فى الرد على المسلمين .

وغريب أمر أولئك الذين يتصورون بأن المسلمين الأولين كانوا كالحجارة الصم لا يحسنون سؤالا ولا يدرون جواباً . وفى القرآن الكريم والحديث الشريف والسير والمغازى والأخبار أسئلة وأجوبة مختلفة فى مسائل الكون والعالم والبعث ويوم الدين والأفعال والأعمال والخطير من الدنيا والحقير ، وهم إن شكوا فى كل شيء فلن يستطيعوا الشك فى صحة القرآن وفى صحة روايته كما كان ينطق به الرسول . والقرآن وحده كفيل وخير شاهد على صحة ما نقوله .

ولا عبرة ببعض ما ورد فى بعض الكتب مثل ما جاء فى «كنز العمال» من أن القدريين سموا بهذا الإسم لأنهم «اشتقوا قولهم من النصارى» أو عبارة «اشتقوا قولهم من قول النصارى»(١) إذ ورد فى الأخبار «القدرية مجوس هذه الأمة»(٢).

ولو ذهبنا مذهب بعض المستشرقين .ومذهب أهل الرأى والقياس لوجب علينا أن نقول بأن القدرية أخذت قولها هذا من المجوس ، وهو قول يناقض المعروف ؛ إذ المعروف بأن المجوس كانوا يقولون بالجبر لا بالاستطاعة والاختيار .

الحق أن ما ذكره يوحنا وما بنى عليه بعض المستشرقين هو من قبيل «الأفكار العامة» التى تخطر على كل بال ، من قبيل تلك الأفكار التى ترددت على عقول البشرية منذ أول يوم هبوطها على سطح الأرض حتى اليوم . إنها من قبيل الأفكار العامة التى عالجتها أدمغة الوثنيين كما عالجتها أدمغة أصحاب الأديان بل وحتى الشعوب الابتدائية والقبائل البدوية ، وما كان ظهور مثل هذه الأفكار فى الإسلام بحادث غريب وقد عالج الإسلام أموراً أعقد من المواضيع التى نتحدث الآن فيها بكثير .

ولنعد الآن إلى الموضوع . ظهرت فى الإمبراطورية البزنطية المسيحية وفى ردهات المسيحية فكرة غريبة هى فكرة «تحريم الصور» (Ikonoklasten) وقد انتشرت هذه الفكرة بسرعة كبيرة فى سوريا وفى مصر وفلسطين . فتحطمت الصلبان وأحرقت

(١) راجع عنه 'oLeary, Arabic Thought and its Place in History p, 27. London 1939.

(٢) Islam Studies. Part. 1, pp, 433, M, 94, 765

(١) راجع كنز العمال جـ ١ ص ٣٦ نمرة ٦٦٨ و٦٥٢ ، كذلك Islam Studics. Part, 1, p, 441.

(٢) راجع مختصر كتاب الفرق بين الفرق وهو حديث ص ١٦

التصاوير ، ونادى الناس حتى فى الإمبراطورية البيزنطية بأن الصور والصلبان والزخرفة رجس من عمل الوثنية والشيطان⁽¹⁾.

وشاعت أسطورة ذكرها ثيوفانس (Theophanes) خلاصتها أن أحد اليهود ، وكان يكره النصارى ، تمكن من إقناع الخليفة يزيد الثانى بضرورة تحطيم الصلبان وتمزيق التصاوير كى يطول عمر الخليفة[2]. فأصدر الخليفة أمره فى الحال بوجوب تحطيم كل ما هو موجود من صلبان النصارى . ويذكرون أيضاً بأن إمبراطور القسطنطينية ، وهو الإمبراطور « ليو » تأثر بعد ذلك بأفكار أحد السريان ، وكان قد وقع فى أسر المسلمين ، فاعتنق الإسلام وسمى نفسه « بشراً » « بسر » Beser وغدا من أعداء الصلبان والتصاوير ، وكان ذلك فى عام (٧٢٦) للميلاد[3] .

عندئذ أصدر الإمبراطور أمره فى عام ٧٢٦ للميلاد بتحريم الصلبان والتصاوير . وقد نفذ الأمر الامبراطورى الرسمى فى كافة أنحاء الامبراطورية البيزنطية ، وتبرم صاحبنا يوحنا من هذا الأمر الملكى الرسمى واعترض عليه بست رسائل ألفها تفنيداً لهذا الأمر ولمن قال بهذه البدعة من أتباع الملوك .

وفى هذا التحريم أصل إسلامى ملموس وإجابة لدعوة النبى الكريم، تلك الدعوة التى حققها يوم أمر بتحطيم أصنام الكعبة وأصنام الطائف وكل صنم آخر قائم . ذلك ما قاله نفر من المستشرقين[4]. على أن هنالك جماعة أخرى رأت غير هذا الرأى ؛ رأت أن هذا التحريم مصدره تلك الفكرة اليهودية التى كانت قد حرمت تصوير المخلوقات الحية وقاومت التصوير مقاومة عنيفة . وقد انتقلت هذه الفكرة إلى المسلمين وانتقلت على زعمهم من المسلمين إلى المسيحيين[5].

وتطرف هؤلاء فقالوا بأن الأحاديث التى رويت عن لسان الرسول ، والتى حرمت التصوير ، إنما ظهرت فى هذا العهد الذى أعلنت الحكومة البيزنطية فيه أمرها بتحطيم الصلبان .

ورد فى الحديث : من صوّر صورة فى الدنيا كلّف أن ينفخ فيها الروح يوم القيامة وليس بنافخ »[6]. واستعمل بعض المحدثين

(١) راجع هذه المادة فى دائرة المعارف البريطانية وفى دائرة المعارف الفلسفية

(٢) راجع Theophanes Edition de Boor 401 29.

(٣) راجع Michel le Syries, Livre, XI p, 503

(٤) Islam Studies part 1 p, 446.

(٥) Levetts, History of the Patriachs of the Coptic 3, 72

(٦) كنز العمال جـ ٢ ص ٢٠٠ القسطلانى ٨ ص ٤٨١ الزرقانى على الموطأ ٤٠ ، ٢٠٤ .

لفظة « تصاليب » بدلا من « تصاوير » ، قال القسطلانى : « تصاليب أى تصاوير كصليب النصارى »[1]. وهذا ما يجعل للمشكلة صلة بالمشكلة التى أثارها «الامبراطور ليو» فى الامبراطورية البيزنطية . ويلاحظ أيضاً بأن يوحنا لم يتحامل فى رسائله التى ألفها للدفاع عن الصليب والتصوير على المسلمين كتحامله على اليهود . على عكس ثيودور أبو قرة أحد تلاميذه الذين احتذوا حذوه ونهجوا منهجه ، فلقد تحامل هذا على المسلمين تحاملا شديداً وعنفهم تعنيفاً مراً لأنهم كانوا سبب هذا التحريم[2]. لم تنفع هذه الحملة الصليبية التى أثارها هذا الموظف المسيحى فى بلاط أمير المؤمنين فى الشام شيئاً . قد يكون يوحنا نجح بعض الشىء فى إثارة جذوة نار تلك الشاكل الكلامية التى ظهرت قبله بزمن وفى صبها فى جداله مع المسلمين بقالب منطق يونانى أثر على أسلوب الكلام عند المسلمين، ولكنه فشل فى الحيلولة بين المسيحيين السوريين وبين الاسلام وآثر يوحنا وهو فى أواخر حياته الاعتزال فى دير من أديرة الدنيا النائية ليوجه تفكيره نحو خالقه ، فاختار دير « القديس سابا » (St Sabas) قرب القدس ليكون محله المختار[3]. وقد ظل فى هذا الدير إلى أن جاءه أجله المحتوم بين عامى ٧٤٨ و٧٥١ للميلاد على أكثر الروايات[4] .

جواد على

(١) القسطلانى جـ ٨ صـ ٤٨١ .

(٢) ثيودور أبو قرة " Theodore Abucara " أو ثاودروس أبو قرة (ويروى أيضاً أبو قارة) . أسقف حران (٧٠٠ — ٨٢٠ للميلاد) من أعظم الكتبة الكنسيين وأبرعهم فى المصنفات الجدلية والأبحاث الدينية. وعمر أبو قرة فى عهد المأمون راجع عنه كتاب المخطوطات العربية لكتبة النصرانية للأب لويس شيخو اليسوعى بيروت ١٩٠٤ ، أيضاً المشرق سنة ١٩٠٣ صـ ٦٣٣ ، كذلك ميامره وقد طبعها الخورى قسطنطين الباشا أحد رهبان دير المخلص . مطبعة الفوائد لصاحبها خليل البدوى فى بيروت . أيضاً المتحف البريطانى رقم Or. 4240 كذلك R. A. Nicholson Aliterary History of the Arabs p, 221 Cambtidge. 1931

وجاء فى ضحى الاسلام جـ ١ صـ ٣٤٤ طبعة أولى « أبوكارا » كما جاء فى الأحرف اللاتينية والصواب « أبو قرة » أو « ابو قارة » . كما جاء ذلك فى ميامره نفسها . راجع كتاب ميامر ثاودروس أبو قرة .

(٣) راجع Hitti, History of the Arabs, p, 246 3, Edition 1943.

(٤) يقول Qailhe إنه توفى فى ٤ دسمبر من عام ٧٤٩ للميلاد . أما كتاب فيليب حتى فحوالى عام ٧٤٨ وأما كراف Graf الذى كتب عنه وأخرج مصنفاته فيرى أن حياته كانت بين عامى ٧٤٠ — ٨٢٠ للميلاد ، أى بين عامى (١٢٣ و٢٠٥ للهجرة) راجع Islam Studies 1, p, 434 Migne Patrobog Graec وجاء فى حاشية صـ ٢٤٨ من الجزء الأول من تراث الاسلام الترجمة العربية (١٩٢٦) وكان (أى يحيى أو يوحنا) مولى المأمون وهو خطأ لا أدرى من أين جاء به معرب الكتاب . فأغلب الظن أنه لم يدرك ما قبل عهد خلافة المأمون .

سياسة التعليم ووحدة الأمة

للأستاذ عبد الحميد فهمى مطر

– ٢ –

لم يقتصر أمر التعدد فى معاهد المرحلة الواحدة من التعليم مع ما يصحبه ذلك التعدد من اختلاف ثقافات المدرسين على تعليم البنين ، بل سرى نفس الداء إلى معاهد البنات كذلك . خصوصاً فى المرحلة الثانية منها حيث وجدت مدارس الفنون الطرزية ومدارس الثقافة النسوية والمدارس الثانوية والأوليات الراقية والتربية النسوية ومدارس المعلمات الأولية وغيرها ، وحيث وجدت فى هذه المدارس طوائف مختلفة الثقافات من المعلمين والمعلمات اللواتى تخرجن فى مدارس التدبير بأنواعها والتعليم العام الاضافى ومدرسة المعلمات والسنية ومعهد التربية والفنون إلى غير ذلك مما أدى إلى تفكك تعليم الفتاة بسبب تعدد المعاهد وعدم انسجامها وقلة توافقها وترابطها ، فخلقنا جواً ملائماً كل الملاءمة لتفاوت الطبقات فى معاهد البنات كما سبق أن خلقناه فى معاهد البنين مع أن الوظيفة الأساسية للمرأة فى الحياة تكاد تكون محدودة معروفة وهى طبعاً الزوجية والأمومة . وكان لهذا كله أثره القوى الفعال فى خلق التنافر والقضاء على التعاون بين الأفراد المثقفين من أبناء الأمة الواحدة وبناتها ذلك التعاون الذى هو أساس بناء وحدتها وعماد نهضتها فى كل أعمالها ومشاريعها التى تنهض بها الجماعات والطوائف المختلفة .

ولقد بدأ الاضطراب فى سياسة إعداد المعلمين والمعلمات للتعليم العام فى هذا البلد منذ ألغيت المدرسة السنية للمعلمات ومدرسة المعلمين العليا التى خرجت فى نحو ربع قرن من الزمان عدداً كبيراً من رجال التعليم اضطلعوا ولا زالوا يضطلعون بأكبر قسط فى تثقيف الناشئين فى مختلف المدارس والمعاهد . ولم تستطع مصر مع الأسف أن تحصل على ما يسد فراغ هاتين المدرستين ؛ فمعهد التربية العالى بشقيه الذى قام على أنقاضهما ليعد معلمين ومعلمات للتعليم العام لا يلتحق به إلا طالب منته من الدراسة فى إحدى كليتى الآداب أوالعلوم بالجامعة . وأنى لطالب منته فى احدى هاتين الكليتين راغب فى ولوج معترك الحياة العامة بعد الدراسة الطويلة أن يفكر فى اعداد نفسه من جديد ليكون معلماً ! أنى له ذلك وحظ المعلمين من متع الحياة ومتع الوظيفة ضئيل لا يُقدم عليه إلا من أكرهته الظروف للالتجاء اليه ! لهذا كان الانصراف عن المعهد خصوصاً من خريجى كلية العلوم الذين تتخاطفهم الشركات . ولهذا بقى هذا المعهد سنين طويلة وعدد خريجيه من قسم الرياضة والعلوم لا يتجاوزون عدد أصابع اليد الواحدة . ولهذا وجدت فى مصر أزمة شديدة فى الحصول على هذا النوع من المعلمين . ثم أنا لم نواجه الأزمة مع الأسف بما تستحقه من عناية فوقفنا ازاءها مكتوفى الأيدى ننتظر كل عام ما يجود به المعهد من خريجين قليلين حتى اصطدمنا بالحقيقة الراهنة المؤلمة الخاصة بعدم وجود المعلمين الضروريين للمعاهد التى تنشأ ولملء الوظائف التى تخلو ، واضطررنا إلى حل تلك الأزمة بحلول سريعة غير موفقة كالاستعانة بغير الفنيين من حملة البكالوريا وغيرهم . وزادت بذلك هوة الخلافات فى ثقافات القائمين على أمر اعداد النشء وتثقيفهم كما هوى مستوى التعليم نفسه هوياً كبيراً. ولما أحسسنا بذلك أخذنا نعالجه بعلاجات وقتية ضئيلة الأثر كالدروس الصيفية لغير الفنيين وما إلى ذلك . ثم جاء تقرير مجانية الابتدائى وما تبعه من إقبال أبنائنا على هذا التعليم ضغثاً على أبالة ، إذ اضطررنا إلى التوسع فيه دون أن نعمل أى ترتيب لايجاد المعلمين الضروريين . وأصبح المدرس يواجه أمامه عدداً كبيراً من التلاميذ لم يسبق له مثيل فى الفصل الواحد حتى أصبح عسيراً على المدرس الفنى أن يسوس هذا الجم الغفيرأو أن يفيدهم ، فما بالك بالمدرس غير الفنى أو المدرس الضعيف أو المدرس المبتدىء قليل الخبرة ! انها لحالة تستدعى الاهتمام وتستدعى العلاج . إن مسألة المعلم الكفء ذى الضمير الحى هى أول ما يجب أن تفكر فيه الدولة الرشيدة الحريصة على مستقبل أبنائها وتربيتهم وثقافتهم قبل أن تخطو خطوات واسعة فى نشر تعليم مشكوك عند الكثيرين فى صلاحيته من حيث نوعه ونظامه وانتاجه . وإن التفكك والانحلال القائم فى كثير من المعاهد بسبب وجود عناصر متعددة من المعلمين ذوى الثقافات المختلفة والآراء المتنافرة التى لا يمكن أن توحى بالانسجام والتعاون لكفيل بأن يبقى حالة المدرسة المصرية بعيدة كل البعد عن الأخذ بأساليب التربية الحديثة مهما

دعونا اليها ومهما نبهنا إلى ضرورتها ومهما حاضرنا فيها . ذلك لأن عناصر المعلمين المتعددة المتنافرة لا يمكن أن تجد من تنافرها الوقت ولا أن تتملكها روح التوفر على البحث والعمل للصالح العام ، فكل منها لاه بنفسه وبمستقبله الخاص وبالتعصب لثقافته وبالظهور على غيره . وهي أمور كلها تزيد في هوة الخلاف المؤدى إلى التفكك والانحلال ؛ وسيمتد ذلك التفكك والانحلال دائما وبطبيعة ما للمدرسة من أثر في التكوين ، إلى طبقات الأمة المختلفة خصوصاً منها أولئك الذين يتولون أعمالا موحدة ومرافق ذات غايات واحدة . ولن يمكن القضاء على تلك الخلافات وتوحيد الاتجاهات إلا بتوحيد الثقافات . ولن يتم لنا ذلك إلا بإيجاد المدرسة الموحدة التي تعد المعلمين الذين يقومون بتدريس مختلف العلوم في مدارسنا . أما وقد قضي على مدرسة المعلمين العليا من زمن بعيد فلاشك في أن المصلحة تقضي بادماج دار العلوم ومعهد التربية بعد تعديل شروط اللحاق بهما وجعلها معهداً واحداً لاعداد معلمي المواد المختلفة . وإنا نسوق هذا الاقتراح للرجال المسئولين خصوصاً بعد تلك البحوث القيمة التي أجراها مؤتمر أساليب التربية الحديثة والتي تبين منها « أن الأمر يتطلب معلماً يفهم روح التربية وأهدافها فهما واضحا ويؤمن بها ايماناً قوياً يدفعه الى الجهاد في سبيل تحقيقها » كما جاء في القرار الثاني من قرارات المؤتمر . ولا شك أن هذا المعلم النموذجي لن يندفع إلى ذلك الجهاد إلا إذا تعاون معه زملاؤه وأمن كيد عناصر أخرى تؤذيه في جهاده وقد تحاربه وقد لا تقدره . والمعلم الموحد الثقافة هو المعلم الوحيد الكفيل بالاضطلاع بهذا الجهاد في سبيل تحقيق الهدف المطلوب . يقول أحد قادة التربية الغربيين « أعطني المعلم الكفء واتركه بغير برامج يخرج لك من النشء رجالا . أما البرامج التي لا يقوم على تنفيذها المعلم الكفء مهما حسنت فانها لا تخرج إلا أطفالا كباراً أشباه الرجال وما هم برجال » فمسألة المعلم الكفء الذي يفهم مهمته ويفهم روح التربية وأهدافها والذي يتعاون مع زميله على قدم المساواة لما بينهما من تجانس في التعليم والثقافة ، وتوافق في الاتجاه والاحساس بالمسئولية هي مسألة المسائل ومشكلة المشاكل في مصر . وقد أعارها المؤتمرون جل اهتمامهم لأنها لا يصح أن تتجاهلها أية هيئة تعليمية

إن أمامنا مثلا رائعاً نحسه ونلمسه بين أيدينا اليوم يوضح لنا أثر الثقافة الموحدة في بناء كيان وحدات الأمة وتدعيمها وتقويتها . ذلك المثل هو جامعة فؤاد الأول بمختلف كلياتها . فقد ظن البعض في مبدأ تكوينها أن لا فائدة ترجى من الجمع بين عدة مدارس عالية وجعلها كليات في جامعة واحدة . فان مايدرس في كلية الهندسة اليوم مثلا هو ما كان يدرس في مدرسة المهندسخانة قديما مضافا اليه التطور الذي أوجده الزمن في فنون الهندسة الحديثة . وكان من الممكن البقاء على مدرسة المهندسخانة القديمة مع ادخال ما استدعاه التطور الحديث فيها .

نعم كان ذلك ممكنا وتبقى كلية الهندسة مستقلة كل الاستقلال بل بعيدة كل البعد عن كلية الحقوق وعن غيرها من الكليات الأخرى . كل ذلك صحيح ، ولكن أنى يكون لنا عندئذ بفكرة الوحدة الهائلة العظيمة التي تضم عدداً كبيراً من الكليات تحت لوائها في إدارة واحدة يشرف عليها جميعاً مدير واحد يضم شتاتها ويوحد صفوفها لتسير في اتجاهات متوازية إلى غرض واحد ؟ أنى يكون لنا عندئذ بتلك الوحدة الجامعية التي تضم الآلاف المؤلفة من شبابنا تحت لواء واحد يعملون جميعاً في تلك الصفوف المتوازية المتقاربة المتعاونة سائرة في اتجاه واحد لا يصطدم بعضها ببعض ولا يتعارض بعضها مع بعض الى هدف واحد تهفو اليه مصر كلها وتنزله المنزلة الأولى من نفسها وتضعه في السماك الأعلى من آمالها ؟ فلا شك اذن أن فكرة الوحدة الجامعية فكرة رائعة توحي إلى الشباب بالوحدة والقوة وتقضي على كثير من تلك الخلافات السخيفة التي يؤدي اليها اختلاف الثقافات . فهي مكسب هائل وربح عظيم ربحته مصر فدفعها نجاحها في الحصول على هذا الكسب أن خلقت في العاصمة الثانية أختا للأولى تشاركها في مسئولياتها وتسير في نفس اتجاهاتها مما سيؤدي ان شاء الله الى خلق غيرها وغيرها بفضل توفر البحث وتضافر الجهود .

نسأل الله أن يسدد خطى العاملين لرفع شأن الثقافة وتوحيد اتجاه التعليم ومقاصده للنهوض بالناشئين أبناء الجيل الحاضر نهوضاً يتناسب مع مركز مصر بين أمم الأرض عامة وبين أمم الشرق والعروبة خاصة في ظل جلالة الفاروق المفدى .

عبد الحميد فهمي مطر

محمد بن عبد الملك الزيات

للأستاذ عبد اللطيف ثابت

جلس عبد الملك بن أبان بن أبي حمزة إلى ولده محمد يحدثه عن تجارة الزيت ، ويروى له من تجاربه ، ويصف له مشاهده الممتعة في رحلاته التي كانت تنتهي بذكائه وصبره وجرأته إلى التوفيق ، إذ كان يجلب الزيت من مواضعه إلى بغداد ، فيثرى من وراء ذلك ثراء عظيما ، ويعد لما جمعه من المال في تجارة الزيت من مياسير الكرخ ، وينصحه في لهجة العاطف الحاني أن يحذو حذوه ، ويسلك مسلكه ، فيتعلق بالتجارة ويتشاغل بها ؛ ولكن الفتى وقد سمت به همته ، وطمح إلى ما لا يطمح إليه السوقي الذي تشغله التجارة وملازمتها عن قصد المعالي — يأبى أن يصغي إلى حديث أبيه إلا بمقدار أن يسمعه ، فيجيب عنه بإباء يؤكده أنه لا يشتغل إلا بالأدب وإلا بما هو من وسائل الأدب ، لأنه يحس من نفسه بدوافع تدفعه إلى ما لا يرمقه إلا كل ذي همة وثابة ، ونفس تطمح إلى العلا .

وها هم أولاء لداته يشهدون له بكفايته في العلم والأدب ، ويثنون على ذكائه وقوة إدراكه وسرعة بديهته ، ومقدرته على حل ما يشكل عليهم من مسائل العلوم لا في النحو واللغة فحسب ، بل فيهما وفي غيرهما من سائر العلوم . وهذا أبو عثمان المازني وقد عرفه لما قدم بغداد في أيام المعتصم يقول لأصحابه وجلسائه ، إذا خاضوا بين يديه في علم النحو فاختلفوا فيما يقع فيه الشك — ابعثوا إلى هذا الفتى الكاتب ، يعني محمد بن عبد الملك الزيات ، فاسألوه واعرفوا جوابه فيفعلون ، ويصدر جوابه بالذي يرتضيه أبو عثمان ويوقفهم عليه . فهذه الثقة من أترابه وغيرهم من أبناء عصره ، تدفعه في قوة أن يخالف أباه عبد الملك ورغائبه ، فيلزم الأدب ويطلبه ويخاطب الكتاب ، ويلازم الدواوين ، ويجيب أباه في قوة الواثق المطمئن — وقد قال له ذات يوم : والله ما أرى ما أنت ملازمه ينفعك ، وليضرنك ، لأنك تدع عاجل المنفعة ، وما أنت فيه مكفي ، ولك ولأبيك فيه مال وجاه ، وتطلب الآجل الذي لا تدري كيف تكون فيه . فيجيبه : والله لتعلمن أينا ينتفع بما هو فيه أأنا أم أنت ؟ ثم يشخص بعد قليل إلى الحسن بن سهل وزير المأمون ، فيمدحه بقصيدة أولها :

كأنها حين تثني خطوها أخنس موشي الشوى يرعى القلل

فيعطيه الحسن عشرة آلاف درهم ، فيعود إلى أبيه فائزاً منتصراً ، فيبتسم أبوه في رضا ، لأنه تاجر يسره أن يرى الدراهم والدنانير ، ثم يقول له لا ألومك على ما أنت فيه . ولكن محمد بن عبد الملك لا يقنعه أن يصله الحسن بعشرة آلاف درهم ، إذ ليس ذلك قصارى غايته مما تطمح إليه نفسه ، بل يطلب أن يمثل بين يدي الوزير فيؤذن له ، فينشده :

لم أمتدحك رجاء المال أطلبه لكن لتلبسني التحجيل والغررا

وليس ذلك إلا أنني رجل لا أطلب الورد حتى أعرف الصدرا

فيقدره الحسن قدره ، ويعترف له لأنه شاعر مجيد لا يقاس به أحد من الكتاب إلا ابراهيم بن العباس الصولي . على أن الصولي مقل وصاحب قصار ومقطعات ، ومحمد بن عبد الملك شاعر يطيل فيجيد ويأتي بالقصار فيجيد .

ويأبى إلا أن يصل إلى الغاية في أن يأخذ الحجة على أبيه بصدق نظره وصحة رأيه فيما هو يرى إليه من الاشتغال بالأدب ، فينتهز فرصة واته بادر إلى افتراصها ، فود بها حقاً لأبيه كاد يضيع : ذلك أن ابراهيم بن المهدي وثب على الخليفة المأمون ، ولما لم يكن لديه من المال مايعينه على أمره ، اقترض من مياسير التجار ما هو في حاجة إليه من المال ، وأخذ من عبد الملك بن أبان فيمن أخذ عشرة آلاف درهم ، وقال له : أنا أردها إذا جاءني مال ، ولم يتم أمر ابراهيم ، فاستخفى حيناً ثم ظهر ، ورضى عنه المأمون ، فطالبه الناس بأموالهم فقال : إنما أخذتها للمسلمين وأردت قضاءها من الفيء لو تم لي الأمر ، والأمر الآن إلى غيري .

وعلم محمد بن عبد الملك بقصة القرض ، فعمل قصيدة يخاطب فيها المأمون بما يوقظ موجدته على ابراهيم بن المهدى ، واطلع ابن المهدى عليها ، وقال له : لئن لم تعطنى المال الذى اقترضته من أبى لأبعثن بهذه القصيدة إلى المأمون ، فخاف ابن المهدى أن يقرأها المأمون فيتدبر ما قاله فيوقع به ، فقال له : خذ منى بعض المال ونجم على بعضه ، ففعل بعد أن حلفه ابراهيم بأوكد الأيمان ألا يظهر القصيدة فى حياة المأمون ؛ فوفى له بذلك ، ووفى ابراهيم برد المال كله . ويسر أبوه بهذا كله ويعجب ، ومن هذه القصيدة ما يأتى :

فو الله ما من توبة نزعت به ... إليك ولا ميل إليك ولا ود
ولـكن إخلاص الضمير مقرب ... إلى الله زلفى لا تخيب ولا تكدى
أتاك بها طوعاً إليك بأنفه ... على رغمه واستأثر الله بالحمـد
فلا تتركن للناس موضع شبهة ... فإنك مجزى بحسب الذى تسدى
فقد غلطوا للناس فى نصب مثله ... ومن ليس للمنصور بابن ولا المهدى
فكيف بمن قد بايع الناس والتقت ... ببيعته الركبان غوراً إلى نجد
ومن سك تسليم الخلافة سمعه ... ينادى به بين السماطين من بعد
وأى امرئ سمى بها قط نفسه ... ففارقها حتى يغيب فى اللحد

ومنها :

فإن قلت قد رام الخلافة غيره ... فلم يؤت فيما كان حاول من جد
فلم أجزه إذ خيب الله سعيه ... على خطأ إذ كان منه على عمد
ولم أرض بعد العفو حتى رفعته ... وللعم أولى بالتغمـد والرفد
فليس سواء خارجى رمى به ... إليك سفاه الرأى والرأى قد يردى
ومن هو فى بيت الخلافة تلتقى ... به وبك الآباء فى ذروة المجد
فمولاك مولاه وجندك جنده ... وهل يجمع القين الحسامين فى غمد

ويظهر لما اشتهر به من العلم والفضل والبراعة فى الأدب أثره ، فينتظم فى سلك الكتاب بديوان الوزارة ، ويظل يعمل لا يزيد على غيره من الكتاب شيئاً ، ولا يمتاز عنهم بشىء إلا بما وهبه الله من علم وأدب .

ويتولى الوزارة للمعتصم أحمد بن عمار بن شاذى البصرى ، ويرد على الخليفة من بعض عماله كتاب يقرؤه الوزير عليه ، وكان فى الكتاب ذكر الكلأ ، فيسأله المعتصم : ما الكلأ ؟ فيقول : لا أعلم ، وكان قليل المعرفة بالأدب ، فيقول له المعتصم : خليفة أمى ، ووزير عامى ! وكان المعتصم ضعيف الكتابة ، ثم يأمر أن يبصروا من بالباب من الكتاب ، وتشاء الأقدار التى تيسر كل إنسان لما خلق له ، أن يكون بالباب محمد بن عبد الملك الزيات ، ويدخلونه إلى الخليفة فيسأله : ما الكلأ ؟ فيجيب : الكلأ العشب على الإطلاق ، فإن كان رطباً فهو الخلا ، فاذا يبس فهو الحشيش ، ثم يشرع فى تقسيم أنواع النبات فيعلم المعتصم فضله فيستوزره ويحكمه ويبسط يده .

ويبلغ الفتى بالوزارة الذروة مما كان يطمح إليه ، فيعلو شأنه وتنفذ كلمته ، ويدل بما عرف عنه من العلم والفضل فيشترط إذ يتولى الوزارة ألا يلبس القباء وأن يلبس الدراعة ويتقلد عليها السيف بحمائل فيجاب إلى ذلك فيمتاز بهذا أيضاً عما سبقه من الوزراء .

ويبدو فى وزارته شديد البأس ، عظيم المنة ، قوى الإرادة قاسى القلب ، لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلا بل هو يرى الرحمة خوراً فى الطبيعة وضعفا فى المنة ويقول عن نفسه مارحمت شيئا قط . ولا يقف فى حقده دون نكبة من يحقد عليه ، غير مبال بصروف الزمان وتقلب الدهر . ٱتخذ فى أيام وزارته تنورا من حديد فى داخله مسامير محدودة قائمة كرؤوس المسال يعذب فيه المصادرين وأرباب الدواوين المطلوبين بالأموال فكيف انقلب أحدهم أو تحرك من حرارة العقوبة تدخل المسامير فى جسمه فيجد لذلك أشد الألم ، حتى إذا جأر إليه المعاقب يطلب الرحمة أجابه بكلمته السابقة إن الرحمة خور فى الطبيعة :

ومن يتصف بمثل صفاته هذه ويكون فى مثل شأنه هذا يكثر حساده ويشتد عليه أعداؤه .

ومن هم حساده وأعداؤه ؟ إنهم عظماء الرجال فى عهده : كالقاضى أحمد بن أبى دؤاد ، ويحيى بن خاقان ، وإبرهيم

ابن العباس بن محمد بن صول ، وعلى بن جبلة ، وأبى دلف القاسم ابن عيسى :

كتب إليه على بن جبلة يقول ، وكان قد قصد أبا دلف فى بعض أمره :

يابائع الزيت عرج غير مرموق … لتشغلن عن الأرطال والسوق
من رام شتمك لم ينزع إلى كذب … فى منتاك وأبداه بتحقيق
إن أنت عددت أصلا لا تسب به … يوما فأمك منى ذات تطليق
ولن تطيق بحول أن تزيل شجا … أثبته منك فى مستنزل الريق
الله أنشاك من نوك ومن كذب … لا تعطفن إلى لؤم لمخلوق
ما ذا يقول امرؤ غناك مدحته … إلا ابن زانية أو فرخ زنديق

فاجابه محمد بن عبد الملك

اشمخ بأنفك ياذا السيء الأدب … ماشئت واضرب حذاك الأرض بالذنب
ما أنت إلا امرؤ أعطى بلاغته … فضل العذار ولم يربع على أدب
فاجمح لعلك يوما أن تعض على … لجم دلاصية تثنيك عن كثب
إنى اعتذرت فما أحسنت تسمع من … عذرى ومن قبل ما أحسنت فى الطلب
صبراً أبا دلف فى كل قافية … كالقدر وقفا على الجارات بالعقب
يارب إن كان ما أنشأت من عرب … شروى أبى دلف فاسخط على العرب
إن التعصب أبدى منك داهية … كانت تحجب دون الوهم بالحجب

ثم اتصلت المهاجاة بينهما زمنا بسبب تعصب على بن جبلة لأبى دلف وليس غريبا ولا فضولا أن يتعرض على بن جبلة لهجو محمد بن عبد الملك لايحمله على ذلك إلا انتصاره لأبى دلف وإخلاصه له وتفانيه فى حبه ، فقد تعرض ابن أبى جبلة لغضب المأمون وناله ما ناله منه بسبب أبى دلف إذ قال فيه :

إنما الدنيا أبو دلف … بين باديه ومحتضره
وإذا ولى أبو دلف … ولت الدنيا على أثره

وقال :

أنت الذى تنزل الأيام منزلها … وتنقل الدهر من حال إلى حال
وما مددت مدى طرف إلى أحد … إلا قضيت بأرزاق وآجال

فأحفظه عليه ، فليس يعقل أن يخشى سلطان محمد بن عبد الملك وهو لم يخش سلطان الخليفة وإن كان محمد بن عبد الملك قد بلغ من السلطان مبلغا جعل الناس يتملقونه ، فيرضون عمن يرضى ويغضبون على من يغضب .

وهذا ابرهيم بن العباس الشاعر تنقلب صداقته لمحمد بن عبد الملك عداوة شديدة ، وشحناء عظيمة ولا سبب لذلك فيما يغلب على الظن إلا أن ابن عبد الملك حسد ابرهيم حظه من الوجهة الأدبية فهو كاتب حاذق بليغ ، فصيح منشىء ، وهو إلى هذا شاعر مجيد يقول عنه أحد شعراء عصره لو تكسب ابرهيم بالشعر لتركنا فى غير شيء . وحسده كذلك نباهة شأنه ، وعلو قدره ، حتى لقد تنقل فى الأعمال الجليلة والدواوين إلى أن تولى ديوان الضياع والنفقات بسرمن رأى — وكأنما كان يخشى منه ابن الزيات على نباهته أن يخملها ، وسلطانه أن يذهب به ، فهو يحمل عليه وينال من دينه وشرفه ، ويرسل إليه أبا الجهم أحمد بن سيف ويكلفه أن يبحث بدقة فى شئونه عسى أن يكشف عن أخطائه ويظهر من أغلاطه ما يأخذه به فى غير حذر من لوم ، فيكتب إليه ابراهيم .

وإنى لأرجو بعد هذا محمداً … لأفضل ما يرجى أخ ووزير

ولكن محمداً يقيم على أمره وأبا الجهم يلج فى تحامله . فيكتب إبراهيم أيضاً إلى ابن الزيات شاكيا أبا الجهم نائلا منه ، واصفاً إياه بالكفر ، إذ هو القائل لما مات غلامه يخاطب ملك الموت :

تركت عبيد بنى طاهر … وقد ملأوا الأرض عرضا وطولا
وأقبلت تسعى إلى واحدى … ضرارا كأن قد قتلت الرسولا
فسوف أدين بترك الصلاة … وأصطبح الخمر صرفا شمولا

فينسب محمد لشدة عصبيته على ابراهيم هذا الشعر له ويرميه بالكفر دون أبى الجهم ، ويأبى أن يصغى لتوسلاته اليه شعراً أو

نثراً ولا ينقذه منه إلا الخليفة الواثق فهو الذي يرفع عنه ، ويأمره أن يقبل منه ما رفعه من المال برغم ما ثبت عليه من عجز في إدارته في ديوان الضياع بما كشفه أحمد بن المدبر ، حين جمع المتوكل بينه وبين ابراهيم فأخذ يروى من عجزه أمثلة لا تفتقر — وقد اعترف ابراهيم نفسه بعجزه وقال : إني لم أدفع أحمد بحجة ولا كذب على في شيء مما ذكر . وينظر فاذا الناس يتحامون ابراهيم أن يلقوه ، وقد انحرف عنه محمد بن عبد الملك ، حتى الحارث بن بشتخير الزريم المغنى ، وكان صديقاً مصافياً لإبراهيم يهجره فيمن هجره من الإخوان . فيكتب إليه إبراهيم :

تغير فيمن تغير حارث / وكم من أخ قد غيرته الحوادث
أحارث إن شوركت فيك فطالما / غنينا وما بيني وبينك ثالث

ويحس إبراهيم أن ابن الزيات رُدَّ عنه ، فيبسط لسانه فيه ويهجوه كثيراً ، ويقول له :

أبا جعفر خفّض خفضة بعد رفعة / وقصّر قليلا عن مدى غلوائكا
فإن كنت قد أوتيت عزا ورفعة / فإن رجائي في غد كرجائكا

ثم يبلغه أنه مات فيقول :

لما أتاني خبر الزيات / وأنه قد صار في الأموات
أيقنت أن موته حياتي

ويعاديه أحمد بن دؤاد فيهجوه ابن الزيات كثيراً ويجمع أحمد الشعراء ويحرضهم على هجاء ابن الزيات ، ثم يقول فيه وقد بلغه أن أحد الشعراء هجاه بقصيدة عدتها سبعون بيتاً

أحسن من سبعين بيتاً هجا / جمعك معناهن في بيت
ما أحوج الملك إلى مطرة / تغسل عنه وضر الزيت

يعير ابن الزيات بتجارة الزيت ، فلما بلغ البيتان ابن الزيات كتب إلى القاضي أحمد يعيره ببيع القار وكان أبوه يبيعه

يا ذا الذي يطمع في هجونا / عرضت بي نفسك للموت
الزيت لا يزرى بأحسابنا / أحسابنا معروفة البيت
قيرتم الملك فلم ننقه / حتى غسلنا القار بالزيت

وينشد أبو تمام محمد بن عبد الملك قصيدة يقول في مطلعها « لهان علينا أن نقول وتفعلا » فيثيبه عليها ثم يوقع له

رأيتك سهل البيع سمحا وإنما / يغالى إذا ما ضن بالشيء بائعه
فأما الذي هانت بضائع بيعه / فيوشك أن تبقى عليه بضائعه
هو الماء إن أجممته طاب ورده / ويفسد منه أن تباح شرائعه

فيجيبه أبو تمام منكرا عليه هذا التوقيع

أبا جعفر إن كنت أصبحتُ شاعراً / أسامح في بيعي له من أبايعه
فقد كنت قبلي شاعراً تاجراً به / تساهل من عادت عليك منافعه
فصرت وزيراً والوزارة مكرع / يغص به بعد اللذاذة كارعه
وكم من وزير قد رأينا مسلطا / فعاد وقد سدت عليه مطالعه
ولله قوس لا تطيش سهامها / ولله سيف لا تفل مقاطعه

وقد حمل أبا تمام بقسوة ملاحظته أن يرد عليه رداً ثقيلا فيه هجاء وفيه تذكير بما قد يؤول اليه أمره مما يتمناه له حساده وأعداؤه وقد صار أبو تمام بهذا أحدهم .

« للحديث بقية »

عبد اللطيف ثابت

الشيخ عبد العزيز البشري

لمناسبة انطواء عامين على وفاته (*)

للأستاذ منصور جاب الله

طويت صفحة المرحوم الشيخ عبد العزيز البشرى فى غمار الأحداث فلم تفه الأقلام حقه بحسبانه من أدباء العربية المعاصرين الذين خدموا لغة الضاد وتميزوا بجزالة الأسلوب ورصانة العبارة ووثاقة المعنى .

والحق أن المرحوم البشرى كان من حوارى تلك المدرسة الأدبية المحافظة التى نشأت فى أعقاب الثورة العرابية ، ولقد شرح بنفسه مدى تأثره بأسلوب المويلحيين فى الجزء الأول من كتاب «المختار» . ولو قد رجعنا إلى أساليب الكتاب قبل هاتيك الثورة لهالنا مقدار تهافتها وركاكتها وبعدها عن أوضاع اللغة الصحيحة ونحوها وصرفها ، ومن ثم كان لنا أن نزعم أن الثورة العرابية خدمت — عن طريق غير مباشر — اللغة العربية بما أذكت من الكتاب والخطباء .

ولقد نشأ الشيخ البشرى فى بيت علم ونعمة وحفاظ ، فكان أبوه شيخاً للأزهر حقبة ليست بالقصيرة وكان من الأساتذة المتبحرين فى الفقه على المذهب المالكى ، فلم يشأ أن يخالف عن تقاليد أسرته فانخرط فى سلك طلاب الجامع العتيق ، بيد أن النهضة الحديثة كانت أضواؤها تأتلق فى جنبات الأزهر بين طائفة قليلة من الطلاب وطائفة أقل من الأشياخ . وكان أن أصدر المرحوم ابراهيم بك المويلحى صحيفته الأسبوعية «مصباح الشرق» وفيها نقد للشخصيات المصرية فى القرن التاسع عشر وفيها « حديث عيسى بن هشام » لمحمد بك المويلحى بأسلوبه التهكمى الجزل ، وهكذا فتن « البشرى الصغير » بالأدب والأدباء ، وعزف عن حلقات الدرس فى الأزهر ودأب على مراسلة الصحف الأدبية القائمة حينذاك ، وما كاد يظفر باجازة العالمية حتى طلبته وزارة المعارف ليكون محرراً فنياً بها .

حدثنا رحمه الله فيما حدثنا أنه كان مغرماً بالفن من صباه ، وأنه وقد أدرك من المطربين عبده الحمولى ومحمد عثمان ويوسف المنيلاوى وعبد الحى حلمى وغيرهم ، كان لايفوته مجلس من مجالسهم المونقة ، وإذ كان صغيراً والناس ما يبرحون على الحفاظ والإحتشام ، كان ماينفذ من الخدم والأحراس إلا بالرشوة فى أيديهم أو بالزوغان من أعينهم ، وكان يمضى الليل ساهراً جله ما تغمض عيناه غير سويعات قلائل مع مطلع الفجر .

وكان الشيخ البشرى يوافى الصحف بمقالاته التى تشيع فى جوانبها الجزالة والترف اللفظى ، غير أنه كان يطالع كل مقالة على ملأ من إخوانه قبل نشرها ، وأخبرنا رحمه الله أنه كان ينهج فى رسائل « فى المرآة » نهج المويلحى الكبير فى تحليله الشخصيات دون خدش للأعراض أو إسفاف فى الأداء . وذكر أن أحداً من الزعماء إذا عرف أن نوبته قد أقبلت فى « مرآة السياسة الأسبوعية » طوى ليله ساهراً لايغمض له جفن حتى يطالع ما كتبه عنه البشرى !

***

لقيته — رحمه الله — أول مالقيت صيف عام ١٩٢٨ ، وكان يصطاف فى ضاحية « شوتس » الجميلة فى رمل الاسكندرية ، فتعارفنا من يومها وتوثقت بيننا الصداقة فكان لايهبط الاسكندرية حتى يعلمنى بمقدمه فلا نكاد نفترق طوال مقامه بالثغر البسيم . ولما أراد أن يسوّى من مقالاته المبثوثة فى الصحف كتاباً ، عهد إلىّ فأذكيت جماعة من النساخين فى مكتبة بلدية الاسكندرية ونقلت بيدى طائفة منها مما كنت أحتفظ به من صحف ومجلات . وقد أحجم عليه رحمة الله طويلا عن جمع مقالاته فى كتاب ثم أجاب طلبة أصدقائه على تكره واستثقال ، وأشار إلى ذلك فى مقدمة الجزء الأول من كتاب المختارفقال : « وكثيراًما استحثنى صدقائى على أن أسوّى من تلك الرسائل مجموعات أطبعها وأنشرها للناس ، فاذا اعتلوا على عذرى بأن هـذا الذى أصنع مما لا أراه يرتقى إلى هـذا المكان ، رحت أجاريهم بظاهر من القول ، وفى التعليق على مشيئة الله تعالى من الكذب منتدح »

وكان أسلوب البشرى وسطاً بين الترسل والسجع ، وكانت فواصله بعيدة المدى ، وتتقاصر حينما يمزح أو يداعب ، ونستميح

(*) توفى رحمه الله فى صباح الخميس ٢٥ مارس عام ١٩٤٣

القارىء فى أن نعرض عليه مثلا من الازدواجات « البشرية » الرائعة . قال رحمه الله على لسان مغرم صب « إننى ما رأيت دُرةً قط إلا حسبت أنها انتزعت من ثغرها ، ولا أبصرت مرآة قط إلا ظننت أنها استعيرت من صدرها ، ولا طالعت وردة ناضرة إلا خلتُ أنها قطفت من خدّها ، ولا تمثّل لى غصن من البان إلا أحضرنى صورة قدها ، ولا سطع لى عبير إلا شعرت أنه من شذاها ، ولا فصحنى نور إلا قدّرت أنه من إشراق محياها ، ولا سمعت شدْو القُمرى إلا سمعتها تتكلم وتلغو ، ولا طاف بى النسيم إلا تمثلتها تلعب وتلهو ، ولا طلعت الشمس إلا رأيتها فيها ، ولا استتم البدر إلا خلتها تعلو على الدنيا كبراً وتيها . وإنى لأرفع بصرى إلى السماء فأرى لهاهودجاً فى موكب السحاب ، وأخرج إلى الفلاة فإذا هى يترقرق بها السراب ، فهى سعدى وهى نحسى، وهى نعيمى وهى بؤسى ، وهى لذّتى وألمى ، وهى صحتى وسقمى ، وهى نعمتى وبلائى ، وهى حياتى وفنائى » (١)

وقال البشرى الشعر فى صباه ، وكان يرسله فى جريدة « الظاهر » هجواً فى المرحوم الشيخ على يوسف صاحب المؤيد تشيّعاً منه للمرحومين مصطفى كامل ومحمد المويلحى ، ثم أجبل زمانا ، فلما توفى صديقه المرحوم الدكتور حلمى النشاوى فى ريق الشباب ومشرق الفتوة جرى لسانه بالشعر مرة أخرى ونشرت له « الرسالة » قصيدة باكية فى ربيع عام ١٩٣٤ ، وكانت آخر قصيدة له فيا أعلم ؛ فلم يقل بعدها شعراً .

والشيخ البشرى . كما عرفه أصحابه ، حسن العشرة ، بارع الحديث ، سريع الخاطر ، يجيد الفاكهة ، ويستضحك بنوادره الباكى الحزين . ومن ثم اتخذه كثير من عظماء المصريين صاحباً وخدينا ، وقبلوا وساطاته وشفاعاته فى الناس ، ولكنه كان إلى ذلك عصبى المزاج يثور لأقل بادرة ، وفى سبيل ذلك يهدر الصداقة القديمة ، ومن أجل هذا الغمز كان كثير من أصدقائه يتقونه ويتحاشونه ، ويخافون سقطات لسانه .

زرته فى مطالع عام ١٩٣٤ ، وكان يسكن بضاحية الزيتون ، فأخذ بيدى وأدخلنى قاعة الاستقبال وأشار بيده إلى صور معلقة إلى الجدار قائلا « هؤلاء الثلاثة هم الذين أجلهم وأحترمهم من بين المصريين جميعاً » وتفرست فى الصور فاذا هى لعظماء ثلاثة : المرحوم أحمد شوقى بك ، والدكتور على ابراهيم باشا ، والدكتور عبد الحميد بدوى باشا . وقد رجعت الآن إلى كتابه « المختار » فألفيته يهديه إلى صديقه المرحوم محمد راغب عطية بك الوزير السابق بهذه العبارة « أهدى عصارة ذهنى مدة الحياة ، إلى من أهدت مودته إلى أحلى ذكريات الحياة » .

***

كان الشيخ عبدالعزيز البشرى أديبا ملء إهابه ، ولو قد قصر عمله على الأدب والكتابة لجاء فيهما بالعجب العجاب ، ولكن أريد له أن يكون موظفا ، وأريد له أن يكون رئيساً إدارياً ، وليس ينتقص من قدر الأديب الصحيح سوى الوظائف التى لا تواتم طبائعه ، ولا تتفق مع سليقته ، ومن ثم بدأ عجز أديبنا العظيم واضحاً حين جىء به وكيلا لإدارة المطبوعات ، ثم مراقباً إداريا لمجمع اللغة العربية ، وقد توفى وهو يشغل المنصب الأخير ، وكان لابد مما ليس منه بد ، وترك رحمه الله الحبل للغارب لبعض صغار الموظفين ، فأحفظ ذلك سائرهم ، وكان فيهم أدباء معروفون، وكان فيهم أصدقاء قدماء له . فقام ذلك دليلا على أن الأديب الممتاز ينبغى ألا يشغل عن الأدب بما هو دون الأدب .

***

وبعد ، فلقد غدا عبد العزيز البشرى فى المنسيين ، لا بل لقد أصبح وأمسى فى المذكورين . وبين أيدينا الساعة كتاب « المرآة » وهو أول كتاب من نوعه فى الأدب العربى ، يجد فيه ويمزح ، ثم لا يقول إلا حقا ، وبين أيدينا جزءان من كتاب « المختار » وقد جمع فيه أروع وأجل ما أرسله فى الصحف الدائرة ، ثم هو قد ألف كتاب « التربية الوطنية » لتلاميذ المدارس وشارك فى وضع « المجمل فى الأدب العربى » لطلبة المدارس الثانوية . ومثل هذه الآثار مجتمعة ومتفرقة لا ينسى صاحبها ، ولسوف تمضى سنون وسنون وهذا البلد وبلدان العروبة قفر من بيان البشرى الساحر وملحه الطريفة ، وشخصيته الفذة . تداركه الله برحمته ، وجزاه عن لغة الضاد أحسن الجزاء .

(الرمل) **منصور جاب الله**

(١) المختار ج ١ ص ١٥٩ و ١٦٠

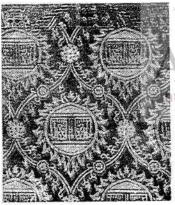


المنســـــوجات
في الخلافة الاسلامية

للدكتور ر . ب . سارجنت

لقد طغت صناعات الغرب على جميع أنحاء العالم فى أثناء القرون الثلاثة الماضية ، حتى أوشكنا أن ننسى أن صناعات الشرق ، ولا سيما الشرق الإسلامى وبيزنطة ، كانت تتهافت عليها البلاد الأوربية تهافتاً عظيما . ويحدثنا رحالة البلاد الغربية فى القرن السادس الهجرى أن الإسكندرية كانت تموج بحركة الملاحة وسفن النقل البحرى من جميع ممالك أوربا حتى أقصى حدودها الشمالية فى البلطيق وإسكندناوة ، بله العديد من التجار الذين كانوا من جهات أبعد فى الشرق كالهنود وغيرهم . وليس ثمة شك فى أن تلك السفن حملت معها « الإسكندرانى » الثمين وهو نسيج من التيل المطرز بالحرير . وأغنية رولان ، التى كتبت فى القرن الحادى عشر ، والتى كانت تصف حوادث عصر سابق بمدة طويلة لتاريخ كتابتها ، تذكر جثة مكفنة بقطعة من نسيج الإسكندرانى . وكما انتقلت تجارة المنسوجات إلى الغرب عن الطريق البحرى ، كذلك انتقلت إليه عن الطريق البرى على الساحل الشمالى الافريقى ، كما أنها انتقلت إلى أوربا الشرقية كما يستدل على ذلك من العملة الإسلامية التى ترجع إلى ذلك التاريخ والتى عثر عليها فى الطريق الرئيسية لأوربا الشرقية والسهول الشاسعة لبلاد الروسيا ، مما وصل إلى بعض البلاد التى فى أقصى الحدود الشمالية لبلاد الروسيا . ويحدثنا ابن فضلان أن الروس كانوا يتجرون مع البلاد الإسلامية فى فراء القندر والسمور والسنجاب ، إذ كانوا يجلبونها من الشمال بطريق الماء على نهر الفولجا ، ويأخذون بدلها المنتجات المصنوعة فى العالم الإسلامى المتمدين .

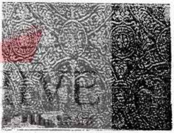
وكانت فرنسا ، وإيطاليا ، والدويلات الألمانية ، وأسبانيا ، وغيرها من بلاد أوربا تستورد المنسوجات من الشرق الأوسط لاستعمالها فى القصور الملكية والأغراض الدينية فى المعاهد الكنسية الغنية ، حيث معظم النماذج المعروفة لتلك المنسوجات لا تزال باقية حتى اليوم ، ولا سيما ما هو باق منها فى الأقطار البلطيقية . وعلى مقتضى ما نقرؤه فى دفاتر الحسابات الملكية الإنكليزية التى ترجع إلى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ، كان ملك انكلترة قد اشترى منسوجات إسلامية ليضعها فى كنيسة وستمنستر . ولقد اطلعت فى سجلات النفقات البيتية لملوك اسكتلاندة فى سنة ١٣٣١ ميلادية ، على أصناف تشتمل على قطع من الحرير الرقيق من أنطاكية وطرسوس وطرابلس الشام .



(شكل ١) زخرف من اللوتس وبه كتابة كوفية

وفى عهد الخلفاء العباسيين — بل فى عهد الخلفاء الأمويين كذلك — كان بلاط الخليفة يستورد منسوجاته الثمينة من مجموعة عظيمة من المصانع التى تملكها الدولة لصناعة تلك المواد الثمينة وكانت تعرف تلك المصانع باسم مصانع الطراز . ويقول رحالة العرب إنه كانت توجد مصانع للطراز فى كثير من بلاد فارس ، ومصر ، وأفريقية الشمالية ، وأسبانيا ، كما يذكرون أنه كانت هناك مصانع للطراز فى صقلية ، وسوريا ، والعراق ، واليمن . ومن المرجح أن المنسوجات كانت تحمل من هذه المصانع إلى قصور دمشق ثم بعد ذلك إلى قصور بغداد ، حيث كان يلبسها رجال البلاط أو ينعم بها هدايا قيمة وتكريما للمنعم عليه بتلك الخلع ، من رجال الدولة ، حتى الشعراء والمغنين كما تحدثنا بذلك القصص الطريفة التى تملأ كتاب الأغانى . على أنه ليس

شك في أن هذه المصانع لم تكن من اختراع العرب الذين غادروا الصحراء وورثوا نظم الحكم وطرائق العيش عن البيزنطيين والفرس . ويشير الجهشياري إلى أن ديوان الخراج كان يستعمل اللغة اليونانية في الغرب واللغة الفارسية في الشرق ، حتى حدث التعديل بنقل لغة الديوان إلى العربية . وهو يذكر ثبتا بالمنتجات الخاصة بكل إقليم ، والتي حملت إلى بغداد بصفتها جزءاً من الخراج وكثير منها كان من المنسوجات . فمن المرجح إذن أن ديوان الخراج كان على اتصال وثيق بإدارة مصانع الطراز . ويختلف المؤرخون في أصل نشأة الطراز ، أكانت في مصر أم في العراق ؛ ولكن المرجح أن الطراز كان في كل من القطرين منذ زمن لا تعيه الذاكرة ، بقية من نظام الضريبة النوعية التي كانت تدفع



(شكل ٢) نسيج مصري مشجر يرجع إلى حوالى سنة ١٣٠٠

ولقد كان الطراز من الأهمية في عصر العباسيين بحيث عين له رئيس خاص بإدارته ، ولم يقنع هارون الرشيد بشخص أقل من جعفر البرمكي ، نفسه لإدارة ديوان البريد ، ودار ضرب النقود ، ودار الطراز — وهي وظائف لا بد أنها كانت تدر الخير . وبانحلال الخلافة العباسية انحلالا تدريجيا شرعت الإمارات الصغيرة تستولي على دور الطراز السلطانية أو تنشيء دوراً جديدة ، وعلى الخصوص في الأندلس وأفريقية الشمالية . ولإمام اليمن مصنع ملكي للطراز في صنعاء من المرجح أنه منحدر انحداراً مباشراً عن مصنع الطراز الذي كان للخلفاء .

وفي تاريخ غير معروف أنشيء مصنع ملكي للطراز على الضفة الشمالية لنهر دجلة بالقرب من الرصافة ، ولا بد أنه كان يضم مساحة كبيرة من الأرض . وكانت بغداد كما هو المنتظر من دخلها الضخم وبلاطها المترف وسكانها الذين يقدرهم بعض من يحتج بهم بمليونين من الأنفس — أعظم مركز لصناعة المنسوجات في العالم الإسلامي . وكانت حلل ولاية العرش تصنع في دار الطراز حتى في العصور الأخيرة للخلفاء العباسيين المغلوبين على أمرهم والذين كادوا لا يملكون من سلطان الحكم أكثر من اعتمادهم لأولئك الذين كانوا يغتصبون السلطة في أيديهم . فقد كانوا مثلا يرسلون مجموعة من الحلل الملكية لأمير مثل محمود الغزنوي ، محتوية على منسوجات بغداد الخاصة . وقد عثر علماء الآثار القديمة على نماذج موشاة بالكتابة من صنع دار الطراز ببغداد في أجزاء أخرى من الإمبراطورية الإسلامية .

وكان من الطبيعي أن أنواعا شتى من المنسوجات كانت تصنع أو تباع في العاصمة الإسلامية . فاليعقوبي يحدثنا عن تجار للمنسوجات الخراسانية بالقرب من ناحية الكرخ وكانت بعض أجزاء مدينة بغداد تسمى بأسماء النسيج الذي تصنعه أو تبيعه . فالنسيج الذي من صنف التستر كان يشترى من حي التسترية . وتستر مدينة من مدن خوزستان على رأس خليج العجم . ومن الشائق أن نذكر أنه كان في تلك الولاية كثير من مصانع الطراز ترجع نشأتها إلى عهد الدولة الساسانية التي كان ملوكها قد نقلوا الصناع من حدود رومية ليؤسسوا صناعاتهم في جنوبي بلاد العجم وفي العراق . وربما كانت الثياب الدبيقية تصنع في حي الدبيقية على نهر عيسى ، وهو طبعا نسيج أصله مصري ، كما أنه قد يكون أكثر الأنسجة تردداً على الألسنة وأعلاها قدراً في ذلك العصر . ويصف لنا الغرناطي نسيج العتابي بأنه مقلم كجلد حمار الوحش ، وهو حيوان يقول عنه إنه من فصيلة الخيل ، وقد رآه في القاهرة وعند ما مات ذلك الحيوان حفظ جلده وحشي قطنا لعرضه في أيام المواسم .

ولقد رأت الحكومة في تلك الصناعة الرائجة ، صناعة الأنسجة ، مصدرا لجلب الضرائب ، فحاولت في القرن الرابع الهجري أن تفرض ضريبة على جميع المنسوجات المصنوعة من الإبريسم أو القطن في المدينة ، مقدرة أن تجلب تلك الضريبة ألف ألف درهم للخزانة العامة . ولكن الضريبة كانت مكروهة ؛ وسببت اضطرابات عنيفة ، فقررت الحكومة فيما بعد ترضية الشعب بفرض ضريبة على المصنوعات الحريرية فقط . وأنشيء مكتب بجوار بركة زلزل ، وكانت جميع البضائع التي تدفع عليها ضريبة تختم هنالك بخاتم الحكومة ، وهو نظام يثير العجب لانطباقه على الأساليب الحديثة الآن .

(البقية في العدد القادم)

عن مجلة الأدب والفن الإنكليزية

فى البيت ...

للأستاذ عبد الرحمن صدقى

أيا غرفةً مرموقةً لِصْقَ غرفتى
مطفأةَ الأنوار رَهْناً بظلمةِ

أرى بابَكِ المطروقَ أمسى موصَّداً
ومخدعُ زوجى أنتِ ، بل أنت جنَّتى

فأدعو بزوجى وهى جِدُّ سميعةٍ
لأمرى ، ولكن الصدى رَجْعُ دعوتى

لقد كنتِ يازوجى لدى الصبح موقفى
وكنتِ حسيبى فى خروجى وأوبتى

فما لىَ لا ألقاكِ يومى وليلتى
وبابُكِ من بابى على قِيد خطوة

أرى من خلال السجف نوراً مُشَعْشَعاً
من الشمس ، لكن لا أرى شمس مهجتى

وأسمع للأطيار تزقو كما زَقَتْ
وللوُرْق تُزجى سجعةً بعد سجعة

فأين فتاتُ الخبز تُلقينه لها
فينقُرْنَ منها حبَّةً إثر حبَّة

عرفن أوانَ الأكل فهى كعهدها
تراءى صفوفاً فوق سورٍ وأيكة

تألَّفْتِها يا إلفَ قلبى وأنسه
فما لىَ فى هذا الحِمى نَهْبَ وحشة !

ألا تسأليني كيف أصبحتُ ؟ فى الضحى
وترجين لى طيبَ الكرى فى العشية

عهدتُكِ لا ألقاكِ حتى تزيَّنى
ألمْ تفرغى لى من حُلِىٍّ وزينة

شريكةَ عيشى ، أسفر الصبحُ فاطلعى
أعِدِّى فطورى وانتقى لىَ حُلَّتى

مكانكِ خالٍ فى الخوان فأقبلى
فيَهْنا طعامى من حديث وطلعة

وإنى لغادٍ للخروج كعادتى
فأين وَداعى بالوصيد وقُبلتى

أغضْبَى بلا ذنب وفى غير مَغضبٍ
وأنت الرضى والصفح عن كل زلة

وكنتُ أعزَّ الناس عندك برهةً
أهُنْتُ عليك اليومَ من بعد عزة ؟

معاذ الهوى ! ما إن صمدتِ لجفوةٍ
ولكنه حكمُ القضاء المشتِّت

نأى بكِ عنى للمنيةِ غائلٌ
ولولا المنايا ما سكنتِ لفرقتى

فأعدَمنى بيتى وعيشى وجنتى
وكانت هنا فى غرفة لِصق غرفتى

أمرُّ فأزوى الطرفَ عنها تألماً
وكان إليها ما مررت تَلَفُّتى

ويفجؤنى أن يفتحَ الباب فاتحٌ
كأنْ كشف اللحَّادُ عن جوف حفرة

أطامن صوتى — إن همست — محاذراً
وأحبس أنفاسى وأخلس مشيتى

وما بى حذارٌ أن أنبِّه هاجعاً
ويا ليت يصحو الميْتُ من بعد هجعة

ولكن مزيجٌ تارةً من تهيب
وخوف ، وطوراً من خشوع وحرمة

ووالله لا أدرى أتفكير عاقلٍ
أفكر ؟ أم هــذى سمادير جِنَّة

الخطيئة الاولى
للشاعر إدوار حنا سعد

فتحتْ بابها وقالت تقدمْ ... سكتَ الليلُ والغرام تكلمْ
ما لكفيك رَجفان وكفى ... فيهما مستكينة تستسلم
ذاك ميعادنا وهذا هوانا ... فلماذا تَهمُّ حيناً وتُحجم؟
ليلة كالخلود بعد اشتياق ... تتدَنَّى بها الليالى وتَنعم

هتف المخدع الأنيق الوردى: ... ألغرام العنيف واللهو عندى
والتهاويل والستائر قالت ... إن تقواك ها هنا ليس تُجدى
فدخلنا إليه كفاً بكف ... من فتون الهوى ...وخداً لخد
وسبانى إغراؤها وهى تخفى ... نار أشواقها دلالاً وتُبدى

أسكرتنى العطور والأنوارُ ... فاترات وأحرقتنى النار
فاذا الغرفةُ الصغيرة تغدو ... عالماً لا تحــدُّه الأبصار
وغيوماً مُورَّدات الحواشى ... وسماء تحفها الأسرار
ورياضاً إعصارهن نسيم ... وبحاراً نسيمها إعصار

لم يعد للوجود سرٌّ يباح ... كلُّ ما فيه غامضٌ أشباح
ويدٌ عانقت وأخرى تراخت ... وأسًى يبتدى ونعمى تتاح
أجريح شفته كأس التدانى ... أم برىء قد أثخنته الجراح؟
لا جديدٌ ولا قديمٌ ولكنْ ... حلم وانتباهة وصباح

ضحك الفجر ساخراً وبكانى ... حين غادرت معبد الشيطان
هارباً كالذئاب تحت ظلال ... من أسًى فائر ومن أشجان
حاقداً تملأ السموم كيانى ... وخجولاً من كل وجه يرانى
آه يا رب بعد طول تسام ... لحقت بى حقارة الإنسان

أترانى أخطأت أم ذاك ضعف ... كامنٌ فى دمائنا لا يكفُّ؟
سنه آدمٌ وأورثنيه ... أم جديدٌ على شبابى يرف؟
والخطايا كريهةٌ غير أنى ... قد وجدت الأجساد ليست تعف
تهت فى حيرتى فوجهت عينى ... للرحيم الذى يقيل ويعفو

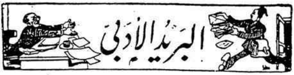
أنت أنقذت من شراك الغوانى ... يُوسفاً بالهدى وبالبرهان
فلماذا تركتنى يا إلٰهى ... فى سمادير جوُّها الفتان
كلما قلت قربتنى صلاتى ... زعم القلب أنه غير دان
لا على الشك يستريح فؤادى ... يا إلٰهى ولا على الإيمان

أنا يا رب تائه وغريقُ ... بعُد الشط والتوت بى الطريقُ
فاتحاً قلبىَ الشجى لنجوا ... ك فأين السنا وأين الرحيق؟
ابعث النور فى حياتى وهدهد ... نزواتى لعلنى أستفيق
وابعث النار فى هشيم شكوكى ... عل شكى تقضى عليه الحريق

جيفــة*
لشارل بودلير
بقلم الأستاذ عثمان على عسل

أتذكرين يا حبيبتى ما رأيناه صباح هذا اليوم المشرق من أيام الصيف الجميلة؟ أتذكرين هذه الجثة البشعة وهى راقدة على فراش قد تناثر عليه الحصى. وقد رفعت ساقيها فى الهواء كفاجرة تلهبها الشهوات، ينضح منها العرق سما، وكشفت عن بطنها المفعم روائح منتنة بفتور واستهتار. كانت الشمس تسلط أشعتها على هذه الجيفة كأنما تريد أن تصليها وتسويها فترد إلى الطبيعة ما وسقته، مبعثراً فى ذرات لا تحصى. وكانت السماء تنظر إلى هذه الجثة الرائعة كأنها زهرة تتفتح، وكانت رائحة العفن الشديدة حتى كدت تسقطين على الأعشاب مغشياً عليك. وكان الذباب يطن حول هذه الأحشاء المجفرة التى تنبعث منها حشرات صافات سود تنحدر كأنها سائل ثقيل على هذه الأسمال الحية، وهى تعلو وتهبط كالأمواج، وتندفع فى صخب، فيخيل إلى المرء أن الجسد وهو ينتفخ بأنفاس خفية يستمر فى الحياة بتكاثر أجزائه. كان هذا الحشد يردد أنغاماً غريبة، كأنه ماء جار، أو ريح عاصفة، أو وسوسة حبوب تُذَرَّى بمنسفة فى الهواء بحركات متسقة. غابت معالم هذا الجسد عن الأنظار، فلم تعد تبدو للعين إلا كحلم أو رسم أولى لصورة سيرسمها الفنان من ذاكرته بعد حين على لوحته المهجورة. وكان ثمة كلب قلق قابعاً وراء الصخور، ينظر إلينا شزراً، مترقباً لحظة ذهابنا ليعود فيلتهم العظمة التى تركها من هذا الحطام. على أنك واحسرتاه! ستصيرين يوماً كهذه القمامة المدنسة، كهذا النتن المخيف، انت يا نور عينى، يا شمس حياتى، انت يا ملاكى، يا هيامى. بلى! إلى مثل هذا المصير سينتهى بك المطاف، يا ملكة الجمال، بعد أن تتلى على روحك الصلوات الأخيرة، فترقدين تحت الأعشاب والأزهار، ويبلى جمالك بين الرمم. وحينئذ خبرى يا حبيبتى الفاتنة، خبرى الدود الذى سيلتهمك بقبلاته، إننى سأحتفظ بصورة غرامى الزائل وروحه المقدسة.

(*) فى الفصل الذى كتبه الدكتور محمد بهجت تحت عنوان « يرى الفنان كل ما فى الطبيعة جيلا » من سلسلة المقالات القيمة التي ينشرها عن الفن لبول جبزيل إشارة إلى هذه القصيدة التى ننشرها كاملة ليتأملها القارئ



الأستاذ ساطع الحصري بك

ورد القاهرة فى الأسبوع الماضى على الرحب والسعة المربى الكبير الأستاذ ساطع الحصرى بك ، زعيم النهضة العلمية فى العراق ، والمستشار الفنى لوزارة المعارف فى سورية ، وأحد أقطاب الفكر فى الشرق ، ومؤلف الكتاب القيم « دراسات عن مقدمة ابن خلدون » ؛ ورد القاهرة يستجم قليلا بعد أن قضى سنة فى العمل المتصل ، متنقلاً من مدن الشام إلى قراه ، يزور المدارس ، ويدرس المناهج ، ويبحث النظم ، حتى استطاع أن يضع للتعليم فى سورية دستوراً على أحدث الطرق التربوية الحديثة يلائم نهضتها ووطنيتها وعقيدتها ووحدتها ، ثم أخذ يدعو إليه ويدافع عنه حتى نُفِّذ . وقد نزل الأستاذ فى فندق شبرد ، فأقبل عليه المشوقون إليه والمعجبون به يرحبون بمقدمه وينعمون بلقائه .

معرض سيدات القاهرة

المعرض الذى أقيم فى نادى سيدات القاهرة خلال هــــذا الشهر[1] ، لا يقل فى مستواه عن أى معرض شاهدناه . والرسوم المعروضة كلها من رسم سيدات وآنسات ، والبعض منهن لسن مصريات ، ولكنهن عشن فى مصر واستُوحين تربتها السمراء وسماءها الصافية ومشاهدها المختلفة .

وأحسن صور هذا المعرض من عمل الآنســات مرجريت بزبك وجان كوهين ومنيرفا فرح وكلو بادارو ، ولــكل طابعها وشخصيتها المميزة .

فرسوم الآنسة بزبك متعمة بالعاطفة الشابة ، وفى صورها شيء من الشاعرية ، وهى ترسم وكأنها تصلى أو تغنى وتبذل كل حرارة قلبها فى الصلاة أو الغناء .

وللآنسة جان كوهين صورة شخصية لرجل Portrait (دكتورهيكان) ، والآنسة جان رسامة بارعة ناضجة ، قد وفقت فيمارسمته توفيقاً كبيراً ، فأعطتنا خلاصة شخصية الرجل الذى رسمته ، ويبدو أنه رجل ممتــاز ، فالصورة تنطق بالعمق والعزم ويقظة الحيوية النفسية .

أما لوحات الآنسة منيرفا فرح — وهذه أول مرة أسعد فيها برؤية صورها — فهى خير برهان على أن الآنسة الفنانة تجد جديداً يهز مشاعرها فى الأشياء التى تصادفنا كل يوم ولا نحفل بها . وهى حين تعرض علينا صورها تشركنا فى عواطفها المتجددة ، وتفتح عيوننا على ألوان من الجمال كثيراً ما نغفل عنها . وتلك هى رسالة الفن .

والآنسة عطيات فرج توفق أحياناً فتبلغ مســتوى زميلتها وصديقتها « جان » وتقصر أحياناً ، وهى غالباً ما تحمل لوحاتها أكثر مما تطيق هــذه اللوحات احتماله من الأشكال والألوان ، فتضيع « الوحدة الفنية » ويتوزع اهتمام الناظر المتأمل . ويبدو أنها تبذل فى عملها مجهوداً كبيراً ، ولــكن كل هذا الإجهاد لا يصل بها دائماً إلى غايتها ، ولألوانها طابع قاتم ، وليس لنا اعتراض عليه ما دام وحى شخصيتها وإحساساتها ، ولا شك أنها فى طريقها إلى النجاح الكامل .

وقد وفقت الآنسة أنايت شمليان فى منظر من مناظر الطبيعة الصامتة ، ولــكنها لم تبلغ المستوى نفسه فى لوحتيها « العارية » و « زهور » .

وهناك فنانات ما زلن فى منتصف الطريق : ففى صور « ماريان بيرسن » ، نجد أن الإحساس أقوى من الأداء ، ومع ذلك فهو إحساس لم يتركز بعــد ، كما أن الألوان غير ناضجة ، وفى صورة « عمرضوان » للآنسة قدرية علوبة نجد الظهر الخارجى للشيخ المسن ، ولــكنها لم تنجح فى نقل صورته النفسية .

ونعتقد أن المســتقبل والاجتهاد ، كفيل بأن يصل ببعض هؤلاء الفنانات إلى مستوى أرقى ، واللواتى أعنيهن بهذه الجملة الأخيرة ، هن الآنســـــات : قدرية علوبة ، ومفيدة شعبان ، وكوكب يوسف . والمعرض فى مجموعه مجهود لا بأس به

نصري عطا الله سوسى

(١) معرض الفن الثامن بنادي سيدات القاهرة ميدان مصطفى كامل

نقص إرشاد الأريب

إجابة عن تساؤل الأستاذ احمد احمد آل صالح المذكور فى عدد (الرسالة ١٦٠) أقول : إننا لا نستطيع أن نتهم ياقوتا الحموى بإغفال بعض الفحول ، غير أن الكتاب لم يصل إلينا كاملا ، كما ذكر ذلك العربانى مرجليوث فى مقدمة الطبعة الأولى . وأمر آخر هو أن أحد الوراقين كان لفق جزءاً وباعه للعربانى مرجليوث على أنه من « إرشاد الأريب » ، فطبعه وألحقه بطبعته ، وراج ذلك على الدكتور الرفاعى فنشره فى طبعته الأخيرة . ونفس ياقوت لا يخفى على الحاذق .

وفى دار الكتب المصرية ، مختصر لإرشاد الأريب ، لعله يتيسر لنا الاطلاع عليه قريباً ، فنستبين منه بعض ما خفى علينا من أصله .

محمد غسان

فلسفة الإسكندرية القديمة

حاضرنا الأستاذ يوسف كرم ، المدرس بكلية الآداب ، بجامعة فاروق الأول ، بقاعة المحاضرات لجمعية الشبان المسيحيين ، عن فلسفة الإسكندرية القديمة ، وهى الحلقة الأولى من سلسلة محاضرات تقيمها الجمعية عن مدينتنا الخالدة ، الإسكندرية ، فى شتى العصور .

على أن ظاهرةً لفتت نظرى فى محاضرة الأستاذ كرم ، عن أصل الفلسفة ! هل الفلسفة أصيلة فى اليونان ؟ لقد أكدّ لنا الأستاذ كرم ، كما فعل كل مؤرخ للفلسفة من كتّابنا المعاصرين ، — ما عدا الدكتور غلاب فيما أذكر — أصالة الفلسفة اليونانية ، وقال الدكتور كرم ، متابعاً فى ذلك أرسطو وأشياعه ، إن طاليس الملطىّ هو أبو الفلسفة بلا منازع ! فما قول الأستاذ كرم فى أننا ننازع طاليس هذه الأبوّة ، ونزعم أن الشرق هو أبو الفلسفة .

على أن الأستاذ كرم أمتعنا كل الإمتاع باستعراضه التلخيصى لتاريخ الفلسفة منذ أن وضع لبنتها طاليس — فيما يرى أستاذنا الفاضل — إلى آخر عهد الإفلاطونية الحديثة بالإسكندرية ، وإن أبناء الثغر من روّاد الحضارة الجديدة ليتطلعون إلى بعث جديد ، يحسّون اليوم إرهاصاً بوشك حدوثه ، وإنّ غداً لناظره قريب .

(الأسكندرية) علي حسن حموده

حول اسم كتاب

اطلعت على ما كتبه الأستاذ منصور جاب الله فيما يتصل بتخطئة عنوان كتاب « الفاروق عمر » ، ثم رد الأستاذ عبد المتعال الصعيدى والأديب احمد ابراهيم الغرباوى عليه ، وكان من المصادفة أنى كنت أقرأ ساعتها نص ابن الأنبارى « على أن اللقب إذا كان أشهر من الإسم يُبدأ به قبل الإسم » فوجدت الأستاذ منصوراً محقاً فى قوله لأن اسم سيدنا عمر أشهر من لقبه ، والعامة عندنا لا يكادون يعرفون لقب ثانى الخلفاء الراشدين ، على حين أنهم يحفظون اسمه حفظاً .

وأما ما ذكره الزرقانى من أن ألقاب الخلفاء تقدم على أسمائهم فهذا نادر لا يقاس عليه ، وبحسب القارئ أن يسأل نفسه : هل يقول هارون الرشيد أو الرشيد هارون ، وهل يقول عبد الله المأمون أو المأمون عبد الله ... ليجد عند نفسه الجواب الصحيح .

وقد أشار السيوطى إلى هذه المسألة اللغوية ، وقال إنها (تخصيص لإطلاق وجوب تأخير اللقب)

وكان حرياً بسعادة الدكتور هيكل باشا أن يجرى على المشهور من أقوال أئمة اللغة ويدع التخصيص الذى أورده السيوطى وغيره .

ومن هنا لا نرانا نميل إلى قول الأستاذ الصعيدى من أن الأستاذ منصور جاب الله كان متعنتاً فى تخطئة اسم كتاب مؤلفنا الكبير ، وإنما كان رجلا يسعى وراء الحق ، ولو كان متعنتاً حقيقة لما أقدم على تخطئة رجل له من المكانة فى وطنه وفى بلدان العروبة ما له .

(الأسكندرية) عبد العزيز جادو

الكتب

فيلسوف العرب والمعلم الثانى

لمعالي الأستاذ مصطفى عبد الرازق باشا

هذا الكتاب من تأليف معالى مصطفى عبد الرازق باشا الرئيس الفخرى للجمعية الفلسفية المصرية . وهو أول كتاب فى سلسلة بحوث الجمعية التى تعمل على « إشاعة التفكير الفلسفى فى أوسع نطاق بنشر طائفة من المؤلفات فى تاريخ الفلسفة ، وما بعد الطبيعة ، والاجتماع ، وعلم النفس ، على أن تعالج حقائق هذه العلوم من أسهل الطرق وأقربها مأخذاً » على حد ماجاء فى التصدير ،

وكتاب فيلسوف العرب والمعلم الثانى يحقق هذه الأغراض كل التحقيق ، فقد عرض معالى مصطفى باشا للموضوعات بما هو معروف عنه من التحقيق العلمى ، مع نفاذ الفكر ، وعمق النظر ورقة الأسلوب ، وبراعة الاستهلال ، ولطف الانتقال .

وموضوعات الكتاب أوسع من عنوانه ، فإلى جانب فيلسوف العرب وهو الكندى ، والمعلم الثانى وهو الفارابى ، نجد الشاعر الحكيم المتنبى ، وبطليموس العرب ابن الهيثم ، وشيخ الإسلام ابن تيمية .

وإذ كان المقصود هو التعريف بشخصية هؤلاء الأعلام ، على الأخص وأن حجم الكتاب لا يتسع للاحاطة بتفصيل مذاهبهم ، فقد اكتفى معالى الوزير بتحقيق حياة بعضهم ، وعرض الجانب الفلسفى عند البعض الآخر ، وهى جوانب كلها طرافة . أنظر إلى ما كتبه عن ابن تيمية ، تجد قطعة من الأدب الرفيع استهلها بقوله « فى أواخر سنة ٧٢٨ هـ . كان فى قلعة دمشق إمام من أئمة المسلمين ، شيخ جاوز السابعة والستين من عمره ، يعانى ألم الإعتقال والسجن ، وحيداً ، ليس معه إلا أخ له يقوم بخدمته . وكان الشيخ يقاسى فوق ألم السجن ألما آخر ، هو على نفسه أشد وقعاً : فقد منع من الكتابة والمطالعة ، وأخرجوا ما عنده من الكتب ، ولم يتركوا له دواة ولا قلماً ولا ورقاً . وكتب عقيب ذلك بفحم يقول : إن إخراج الكتب من عنده من أعظم النقم » ... أليس هذا عرضاً للفلسفة بأسلوب الأدب .

(***)

وا إسلاماه !

للأستاذ على أحمد باكثير

بقلم الأستاذ لبيب السعيد

بعد أن ردت مصر الصليبيين فى المنصورة المجيدة لم ينالوا من الإسلام خيراً ، خرجت إلى « عين جالوت » ترد التتار هم الآخرين ؛ ووقف سلطان مصر المظفر قطز على رأس جيشه يثخن بيده فى أعدائه الطغاة ، بيد أن هؤلاء مكروا مكراً كاد يرديه لولا أن برز فارس مسلم ملثم رد عليهم مكرهم وتلقى المكروه من دون السلطان ثم هتف وهو يعانى الموت : « صن نفسك يا سلطان المسلمين ، ها قد سبقتك إلى الجنة » .

لم يكن هذا الفارس سوى جلنار : زوجة السلطان وحبيبته. وقد جعل السلطان يقبلها ويقول لها فى ذهول وجزع : « وازوجاه ! واحبيبتاه ! » فنادته وهى تجود بروحها : « لا تقل واحبيبتاه قل : واإسلاماه ! » .

وانطلق السلطان إلى المعمعة يصرخ : « وا إسلاماه ! » . ورجاله معه يرددونها فيلقون فى قلوب الذين كفروا الرعب ، ولا يزالون يجاهدونهم ويغلظون عليهم حتى يجيئهم النصر ويشفى الله صدور المؤمنين .

تلك هى القولة التاريخية التى اتخذها صديقنا الأستاذ على باكثير عنواناً لروايته الجميلة .

***

كانت جلنار وقطز رقيقين فى جملة الرقيق أيام آل أيوب ، ولكن لهما قصة حافلة بالعبر ، فهما سلالة بيت بعيد النسب فى المجد ، فأما هى فابنة السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه ، وأما هو فابن عمها . وقد نزلت أفجع الأحداث بآلها فبادوا جميعاً فى ظروف تموج بالهول ، وسلم هذان من الموت ليباعا فى الأسواق وليذوقا ضروبا من الهوان . وفرق الدهر المشت بينهما أمداً ثم جمعتهما الأقدار أخيراً ليكونا سلطانى المسلمين وليكتبا فى تاريخ الإسلام صفحة جد نضيرة :

***

تجلو الرواية أياما مجيدة لسلف المسلمين . وفصولها جميعا تنطوى على رسالات سامية ، فهنا معرض خلق وبطولة باهرين ، وهناك حديث وطنية وتضحية مثاليتين ، وهنا دعوة قوية إلى

الاستمساك بالحق والحماسة له ، وثم حوافز للمجد وزراية على الضعف والضعفاء . ولكنك على كثرة ما تواجهك هذه المعانى لاتحس أن الكاتب تكلفها ، بل تدرك أنها — مع علو نمطها — ليست الشيء الذى وضعت له الرواية وتلك لا ريب من خصائص القصة الفنية الناجحة .

***

ولقد عرض المؤلف أشخاصاً يتعذر على القارىء نسيانهم لوفرة ما لذوا شعوره وناجوا ضميره . فكيف ينسى مثلا «ممدود» أبو قطز وصهر جلال الدين ووليه الحميم ومستشاره الحصيف الأمين ؟ وكيف ينسى «سلامة الهندى» الخادم الوفى الذى حمل الطفلين : قطزا وجلنارا — وكان اسماها فى طفولتهما محمودا وجهادا — إلى الهند يوم أغرق نساء بيت «خوارزم شاه» فى اليم تفادياً من ذل الإسار ، والذى قاسى ما قاسى ابتغاء الوفاء ، والذى مات هماً بالغلامين إذ بيعا فى أسواق النخاسة وجزعاً عليهما من تفرق الشمل ؟ وكيف يُنسى «غانم المقدسى» السرى الصالح وزوجته البارة ؟ و «الحاج على الفراش» الخادم الخير الذى لا تمنعه ضآلة منزلته من إسداء الجميل ؟ و «ابن الزعيم» المحسن البار والوطنى المسلم المجاهد ؟

فأما «الشيخ عز الدين بن عبد السلام» العالم الذى لا يشترى بدينه ثمنا قليلا ، والسياسى الخالص العقيدة ، والمجاهد الصادق البأس ، والزعيم الذى يجد الناس فى زعامته أنوارا وآمالا ، فما ألطف وما أجل وما أنفع ما جرى به عنه قلم المؤلف فى روايته . إن القارئ كلما حكى المؤلف عن عز الدين شيئاً لتحويه موجات روحية ، وإن نفسه لتسمو وتسمو .

وفى الرواية صفحات أخرى كثيرة كأنها لعذوبتها فيوض من الشعر كتبها المؤلف بأسلوب مسيطر ينتزع للرواية منزلة طيبة بين الآثار الأدبية الطيبة .

فطفولة «جهاد» الحلوة ومعابثة أبيها إياها وطموح «محمود» وبطولته وغرامه بتدمير التتار وهو بعد فى طفولته يجتاز الحياة على جسور من الأوهام والأحلام ، والحب الأكيد بين الطفلين ، ومناجاة جلال الدين لأبيه حين أخطأ جلال وقسا على بلد إسلامى .. هذه كلها فيها جمال مؤثر ورقة تلفت القلوب ، وفيها دقة وحذق تساوقان علم النفس مساوقة ملحوظة .

والحب الذى كان بين قطز وجلنار ، الحب العظيم الذى كأن السماء كانت ترعاه ، والذى نما به وشقيا ، هو فى كل مراحله من أمتع ما فى الرواية وأكثره استهواء للب وهزاً للعواطف .

حدث المؤلف عن الحبيبين فى فترة من أيامهما قال :

«وحليت الدنيا فى عينيهما فصارت رياضاً وأنهاراً ووروداً وأزهاراً وطيوفا من ضياء الشفق البهيج ، وروحات من نسيم الفجر العليل يتقلبان منها فى أيام كلها أصيل وليال كلها سحر .

ومن مثل هذا النسق العالى كانت كتابة «باكثير» عن ذلك الحب الفائق ، ومن مثله كان وصفه للطبيعة فى بعض جنبات روايته .

***

بقى أن نعتب على مؤلفنا الموهوب ما حشد به روايته من أسماء كثيرة لأناس فى العهد الأيوبى لم تكن الرواية — فى رأينا — بحاجة إلى ذكرهم .

ونحن نستميح صديقنا المؤلف فى أن نسأله : ما هذه الحيدة عن الطابع الأدبى الخالص فى بعض أنحاء الرواية حين يسوق أحداث التاريخ غير مدبجة بيراع الأديب فلا هى خفيفة ولا هى محبوبة بل هى مجهدة للقارىء مزعجة إياه . لقد قال مثلا فى أحد المواضع : «فلما كان يوم السبت لست بقين من ذى القعدة سنة ٦٥٧ حصل كيت وكيت» فانظر كيف يثقل هذا على من يقرأ قصة أدبية محضاً . إن المحات بله العبارات الأدبية — وخاصة إذا كانت من أديب تمرس بالقصة وتوفر عليها مثل مؤلفنا البارع — كانت كفيلة جداً بأن تشق لنا مسالك التاريخ فى الحدود التى تناسب روايته بوصفها أثراً أدبياً لا كتاباً تاريخياً . إن القصة الفنية كاللوحة — كما هو معلوم — والرسام يرسم الصورة للشئ القديم فيجعلنا بفنه ندرك تاريخ هذا الشئ ، دون أن يضع عليه اسم يوم أو شهر أو سنة . ألا وإن الفطرة الفنية الذواقة على نقيض العقلية العلمية لا تحفل كثيراً بالتواريخ ولا تعنى بالأسماء إلا بقدر . وأظن أن الأستاذ المؤلف إذا عنى بتقديم روايته لمسابقة وزارة المعارف فى الموعد الذى ضرب للمتسابقين أعجل عن بث مواهبه الفنية فى تلك الأجزاء ، ولو فعل لكانت روايته يقيناً من أرفع الآثار الفنية لدينا .

***

وبعد فلا بدّ أن نقرر أن المؤلف كان فى جل روايته نافذ القوة ، وأنه — فيما خلا المواضع المشحونة بالتاريخ لغير داع فنى — بلغ فيما عرضه أقصى ما يبلغه مؤلف فى نفس قارئه من الانفعال والتأثر القوى .

لبيب السعيد